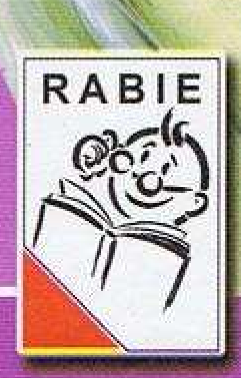
روايات عالمية للناشئة

مغامرات الكابتن فراكاس

تيوفيل غوتييه

H. FARHAT





مغامرات الكابتن فراكاس

(تيوفيل غوتييه)

1811 – 1872

ترجمة

د. محمد نديم خشفة

ذكرى حاج حسين

إشـــراف : محمـــد كمـــال

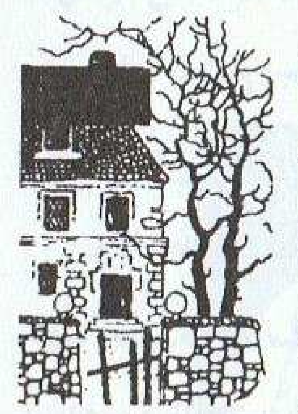
إخراج فني : م. نشوان خريط



مغامرات الكابتن فراكاس

الفصل الأول

زيارة إلى قصر البؤس



كان يعيش ما بين (داكس) و (موندي مرسان) خلال حكم الملك لويس الثامن أحد النبلاء الذين فقدوا ثروتهم ، ولم يعد لديه المال الكافي لترميم قصره أو العناية به ، فاجتاحت ممراته الأعشاب وتشابكت في حديقته أغصان الأشجار ، حتى كادت تحجبه عن الأنظار ، وكأنها غابة كثيفة .

وكان الدخان الخفيف المتصاعد من مدخنة في زاوية القصر يدل المارّة على أن صاحبه ما زال على قيد الحياة .

وكان في الإصطبل حصان هرم تقوست عظامه ، يفتش في المعلف الخالي عن أعواد التبن يسدّ بها رمقه .

على عتبة المدخل يجلس كلب تهدَّل جلده ، بل رقت عظامه ، فكأنه يرتدي ثوباً فضفاضاً ، وقد أسند رأسه إلى يديه .

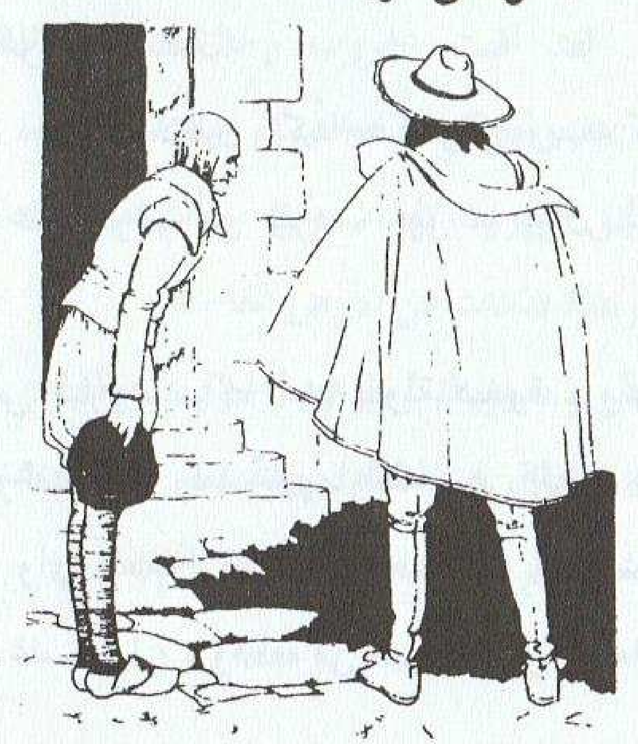
وفي المطبخ جلس بقرب النار قط أسود أجرد الشعر ، وقد أغمض عيناً واحدة يترقب عبور فأرة .

ولا تجد في الطابق الأول غرفة صالحة للسكن ، فالحجرات كلها متهدمة الأسقف ، متشققة الجدران ، يئس سكانها من إصلاحها فاتخذها البوم أعشاشاً له ، ولم يكن فيها سوى أثاث بسيط حائل اللون .

يقيم صاحب القصر في القاعة الواسعة التي كانت عامرة بنبلاء (سيغوياك) الأثرياء ، فأصبحت مرتعاً لأنواع الحشرات ، وإلى جانبها مطبخ كبير وحجرة ضيقة يسكنها خادم القصر الوحيد ، وهو شيخ أخلص لآخر شخص من هذه

العائلة ، فبقي معه ، واسمه بيير ، وكان جندياً ولكنه يقوم بأعباء القصر كله .

في الوقت الذي بدأت فيه هذه الحكاية كان بيير ممسكاً قبعته بيده ينحني باحترام لقدوم سيده من نزهته ، وعبَّر (ميرو) الكلب الهرم و (بلزبوت) القط الأجرد عن فرحهما بلقاء سيدهما ، كل على طريقته .



وكان بارون (سيغوياك) شاباً في الخامسة أو السادسة عشرة ، وليس له حماسة الشباب ، لما تراه عليه من الوقار والنحول وشحوب الوجه والحزن .

وقد ارتدى ملابس والده القديمة ، وجعل على رأسه قبعة من اللباد صفراء مثقوبة ، وهو يجد عزاءه الوحيد في التجول عبر الحقول ، كي يتجنب لقاء سكان القصور المجاورة خوفاً من نظرات الهزء أو الشفقة .

فإذا اجتاز بالفلاحين راكباً حصانه الهرم ويتبعه كلبه حيّوه باحترام على الرغم من فقره ، فهو ما يزال البارون في نظرهم .

جلس البارون ساكتاً أمام طاولة صغيرة ، وعلى جانبه الكلب والقط وقد رفعا أنفيهما لعله يرمي إليهما بفتات من طعامه ، وأي طعام ! قصعة من حساء ما يزال شائعاً لدى سكان (غاسكونيا) ، وقطعة من خبز الذرة وجرة ماء ، فكان

يأكل وهو يداول في رأسه أفكاره الحزينة ، ويتأمل بعينيه السوداوين الواسعتين بصيص نار المدفأة .

لم يبق سواه من عائلته العريقة الغنية ، فهو يعيش صامتاً في قصره مع صور أجداده المعلقة على الجدران ، ولديه خادم واحد بعد أن كان القصر عامراً بالخدم ، ويصحبه كلب هرم شبه أعمى بعد أن كان عدد كلاب الصيد لديه يتجاوز الثلاثين . لقد أفنت الحروب رجال هذه العائلة وأودى الإسراف بمالها وأملاكها ، فتناقصت جيلاً بعد جيل .

ولم يبق للبارون الشاب من ميراث سوى هذا القصر المتداعي وعدّة فدّانات من الأرض القاحلة .

وتحسّر (سيغوياك) وزمجر (ميرو) ووقف (بلزبوت) أمام النافذة يحدق في الظلام ، وسُمعت طرقات شديدة على باب القصر ، وتردد صداها في ردهاته الخالية .

فمن عساه يطلب الضيافة الآن في هذا القصر الذي يجوع أهله ؟

ومضى بيير ليفتح الباب فوجد نفسه أمام رجل يرتدي عباءة سوداء ، فاقترب منه البارون قائلاً :

– ماذا تريد ؟

– الضيافة لي ولرفاقي ، نحن نتجول بين القرى والمدن ، ولكن غرزت عجلات عربتنا في الوحل غير بعيد عن قصرك .

– هل أنتم ممثلون جوالون ؟

– نعم يا سيدي ، وأطمح في ألا تدعنا تحت المطر !

– طبعاً .. تفضلوا .. ليس لدي الكثير لأقدمه لكم ، ولكنكم ستكونون في مأمن من المطر .. أدخلوا العربة !

فتعاون الخادم الهرم بيير مع الممثلين والممثلات على إدخال العربة إلى ساحة القصر .

وسيق الثيران إلى الإصطبل ، وتقدم البارون سيغوياك الممثلين والممثلات إلى قاعة الطعام ، الحجرة الوحيدة القابلة للسكن في القصر كله .

وبحث بيير في المدفأة عن قطعة حطب وأغصان يابسة ، فرماها في النار فارتفع لهيبها .

قال البارون مخاطباً الممثلين الذين أدهشهم الفقر السائد في القصر :

– لا أستطيع أن أقدم إليكم سوى المأوى والصحون ، لأن بيت المؤونة فارغ والثروة كما ترون لا تسكن معي .

فقال الممثل رئيس الفرقة :

– إن معنا طعاماً وسوف نأتي به من العربة على حين ترتب السيدات المائدة .

وبعد عشر دقائق كانت الطاولة عامرة بالمآكل ، من لحوم مقددة وطيور مطبوخة وبجانبها شمعدان يستخدمه الممثلون لإضاءة المسرح ، فأضاء مسرح الطاولة وغادر الحجرة شبح الفقر بضع ساعات .

وصاح الممثل :

– إلى الطعام ، هل يتفضل سيدي البارون بمشاركتنا طعامنا ؟ واسمح لي أن أقدم إليك أولاً أعضاء الفرقة بأسمائهم الفنية ، لأن معظمنا نسي اسمه الأصلي ، أنا (بلازيوس) المتحذلق ، ولعلك تلاحظ أن وجهي وملابسي تلائم دوري ، وهذه الآن نجمة المسرح (سيرافينا) ، عمرها خمسة وعشرون عاماً ، لها جمال الملكة وأناقتها ، يصفق لها المتفرجون حتى قبل أن تتكلم ، وهذه (إيزابيل) الساذجة أقل تألقاً من (سيرافينا) ، ولكنها أكثر فتنة منها بوجهها اللطيف ورموش

عينيها الطويلة وتواضعها ، وهذه (زربين) المغناج السمراء ذات العينين الجريئتين والقلب الطيب .

وهذه أخيراً السيدة (ليونارد) ، العجوز الشمطاء التي كانت جميلة منذ زمن طويل .

وإليك الذكور من الفرقة : (لياندر) النجم ، ومهمته أن يظل جميلاً ، عمره ثلاثون سنة ، وهو شديد العناية بنفسه ، و (سكابان) له ملامح الثعلب الماكر ، ينتظره مستقبل باهر في أحد السجون ، وهذا (الجبار) رئيس الفرقة وأعظم الرجال ، ولا يؤذي ذبابة على الرغم من صوته الذي يشبه صوت الثور ولحيته الكثيفة التي تكاد تغطي عينيه ، وهذا أخيراً (ماتمور) السيّاف ، نحيل أسود كالمشنوق في ليلة صيف ، ويزن سيفه الحديدي خمسين رطلاً ، وليتك تراه على المسرح ورجلاه منفرجتان كالبركان ورأسه مرفوع إلى العلاء وقبضته على وسطه .

لقد تعرفت الآن سيدي البارون علينا جميعاً ورأيت أننا عصبة من الشياطين .

وقبل سيغوياك دعوتهم له إلى الطعام ، فكان المتحذلق يملأ له صحنه بأفخاذ الدجاج وقطع اللحم وقد جذبته إليه الكآبة الرانية على وجهه .

وقفز القط بلزبوت إلى حجر البارون وبدأ يشاركه طعامه ، ولم يعد للكلب ميرو وسيلة للدخول إلى القاعة والحصول على نصيبه من الوليمة .

لقد عادت الحياة إلى هذا المسكن الميت : ففيه النور والدفء والضوضاء ، وارتفعت أصوات الممثلين بالنقاش ، فكان المتحذلق والجبار يتجادلان حول أفضلية الشعر الهزلي والشعر المأساوي .

بعد أن أكل الجميع وشربوا نظروا إلى البارون بودّ وحنان ، وخاصة إيزابيل والمتحذلق .

فكانت الفتاة التي تنعكس روحها على وجهها الجميل تتخيل وهي حزينة الحياة الكئيبة التي يعيشها البارون في قصر البؤس هذا ، وتتمنى لو أعادت إلى خديه الذابلين وهج الشباب ومرحه .

وأما بلازيوس فقد مسّت روحه هذه الضيافة البسيطة والشهامة التي أخنى عليها الفقر ، وقال للبارون بعد انتهاء العشاء :

– إن ما يدهشني رؤية فتى نبيل مثلك يدفن شبابه في حياة العزلة ، ولو ذهبت إلى باريس لعرفك الناس وعلا شأنك .

فقال البارون :

– لقد فكرت في ذلك ، ولكن حياة العسر التي أعيشها لا تتيح لي حتى الوصول إلى باريس ، وهل يتذكر من بقي من أهل وأصدقاء ، ذلك الشاب النحيل الوافد من أعلى برجه المتهدم ؟



– لست مضطراً أن تدخل دخول الأبطال ، فكم من رجل جاء يحمل صرّة ثيابه في طرف عصاه ، وحذاؤه على كتفه لئلا يتلفه السير ، ثم وفقه الله ؟ وإذا كانت عربتنا المتواضعة لا تنال من عزة البارون ، فلتذهب معنا إلى باريس لأننا متوجهون إليها .

فاحمرّ وجه البارون لهذا العرض الصريح وقال لنفسه : (لعل الفرصة لن تتاح لي مرة أخرى لمغادرة منطقتي الريفية) وشعر بالأنفة من أن يكون ضيف ممثل فقير الحال .

وقطعت عليه إيزابيل أفكاره فتقدمت إليه حاملة ديوان الشاعر (رونسار) وقالت :

– أليست هذه القصائد التي وجدتها في الديوان من تأليفك ؟

– نعم إنها لي .

– إذن تستطيع يا سيدي البارون أن تعوّض شاعرنا الذي فارقنا ، فكان يراجع أدوارنا ويصل ما بينها ، ويضيف إليها ما تحتاجه ، وقد يؤلف لنا مسرحية حول فكرة من اقتراحنا .

ورمقته بنظرة جعلته يتخذ قراره فوراً ، فالتفت إلى بلازيوس قائلاً :

– لِمَ التأخر في الرد ؟ إن هذا الكرم جدير بالقبول ، وسوف أمضي معكم لأكون شاعر فرقتكم ، وأرجو الله أن يقدرني على ردّ جميلكم .

فقال بلازيوس :

– آمين .. ولكن يجب أن ننام الآن ، لأننا سننهض فجراً فأمامنا طريق طويلة .

ورقد الجميع إلا سيغوياك الذي انشغل فكره بفراق قصره وملاعب طفولته . وأما بيير فقضى الليل في ترقيع ملابس سيده وترتيبها في الحديقة ، وجمع في كيس صغير من الجلد بعض النقود ، وأضاف إليها ما يملكه .

ما إن أشرقت الشمس حتى نهض الجميع ، وركبت النساء في العربة ، وكذلك المتحذلق وليناندر ، وتبعهم الآخرون سيراً على أقدامهم ، وامتطى البارون حصانه (بايار) الهرم ، فلم يشأ أن يغادر قصر أسلافه راجلاً .

فهم الكلب والقط أن شيئاً غريباً يحدث حولهما ، فتبعا سيدهما مسافة ، أحدهما على يمينه والثاني على يساره ، ثم تعبا فقفزا إلى جانبه على الحصان .

وتأمل البارون أرض أجداده ترسل إليه رائحة أشجار الزيزفون ، وتودعه بنسمات عليلة ، فسقطت من عينيه دمعتان على رأس هذين الحيوانين المخلصين .

وهبط ميرو وبلزبوت عن الحصان وتأملا سيدهما مبتعداً عنهما ، حتى غاب عن الأنظار ، ثم رجعا إلى القصر كما يرجع الأصدقاء .

ولم تكن العربة التي يجرها ثوران تمشي مسرعة ، وقد تنغرس عجلاتها في الرمل والوحل . وكانت الشمس قد ارتفعت في الأفق حينما قرر البارون أن يريح حصانه (بايار) . فترجل عنه واقترب منه بيير فأخذ بزمامه ، وأمسك بيد سيده فقبّلها وهو يقول :

– ليحفظ الله سيدي البارون ، وإني لآسف لشيء واحد هو أني غير قادر على مرافقتك .

– وماذا عسانا نفعل معاً في هذه الحياة الجديدة التي أقبل عليها ؟ وسوف تعيش في القصر عيشة الكفاف ، فلن يتخلى الفلاحون عن خادم سيدهم الوفي ، ويسعدني أن أعلم بأنك ما دمت حيًا ، فسوف تمنع الأطفال من رمي نوافذ القلعة بحجارة مقاليعهم .

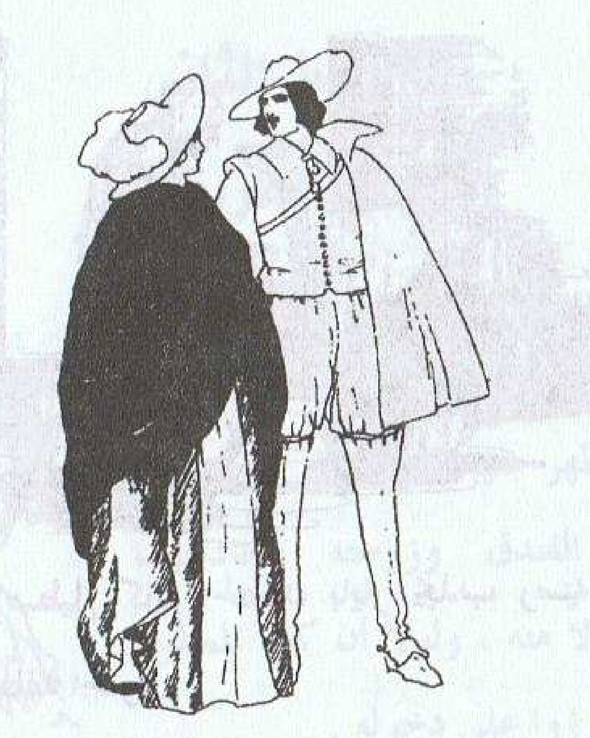
فقال بيير وهو يمسح دمعه بكفه :

– هذا صحيح يا سيدي ، ومن سيعنى بميرو وبلزبوت وبايار ؟ .

حينما افترق الحصان عن سيده صهل صهيلاً حزيناً ، وبيير يسوقه في الطريق إلى الإصطبل .

سار البارون بمحاذاة العربة ، فلمحت إيزابيل غشاوة من الحزن تغلف وجهه ، فنـزلت من العربة ومشت بجانبه لعلها تخفف عنه بعض أحزانه ، وقالت له بصوت وديع :

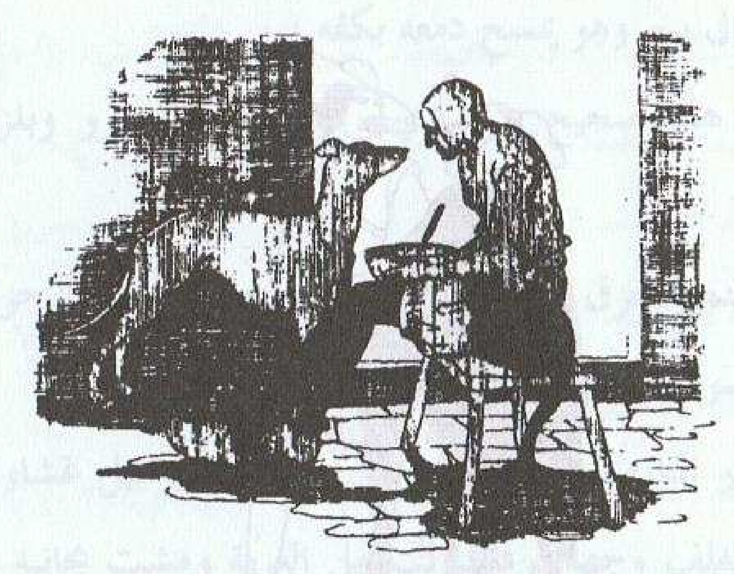
– لا تحزن ، قد يكون الحظ أعمى ، ولكنه يستطيع أن يميز الفارس الشهم من بين جموع الناس ، ويكفيك أن تقف في طريقه ، ولن تمرّ سنوات حتى ترمم هذا القصر الجميل ، ويغدو جديراً برجل نبيل مثلك ، وإني سعيدة لرؤيتك بعيداً عن هذا القصر الذي يسكنه البوم .



فنظر إليها البارون بامتنان ، وأحسّ النشاط يعود إليه .

انقضى النهار دون حادث يذكر ، ووصلوا حوالي الساعة الرابعة إلى مكان يحطّون فيه رحالهم فأكلوا وناموا .

كان المساء حزيناً في القصر ، فقد جلس بيير أمام المدفأة التي خمدت فيها النار يطعم ميرو وبلزبوت ، وهو يفكر بمصير سيده على ضوء شمعة .



وفي الإصطبل كان الحصان بايار يجذب رسنه ويضرب رأسه على معلفه الخاوي .

الفصل الثاني

في الطريق



كان الفندق الذي دخله الممثلون كئيب المظهر متهدم الجدران ، ولم يكن صاحب الفندق وزوجته وخادمتهما أحسن حالاً منه ، ولولا أن كان الممثلون كُثراً لما تجرؤوا على دخوله .

وسارع صاحب الفندق إلى إشعال النار ، فالتفّ الجميع حولها وقال لهم بصوت مرتفع :

– أيها السادة والسيدات إن فندقي عامر بما لذّ وطاب ، ولكن ليس لدينا اليوم سوى حساء القرنبيط مع اللحم المجفف ، فماذا تطلبون من الطعام ؟

فقال له المتحذلق :

– لا أرى أمامنا مجالاً للاختيار ، فهات ما عندك لأننا جائعون .

على حين كانت الفرقة تستريح من سفرها وتأكل بشهية ، كانت هناك عينان سوداوان تتفحصان بإمعان ، وهما عينا فتاة لا تتجاوز العاشرة ، قصيرة القامة نحيلة الجسم ، ترتدي ثوباً ممزقاً ، وقدماها ملطختان بالوحل ، ووجهها تعلوه لمحة من الشراسة والبؤس .

وتركزت عيناها على عقد اللؤلؤ الزائف الذي تضعه إيزابيل حول عنقها ، وقد التمعتا ببريق من الحسد ، وأدارت إيزابيل وجهها تتأملها ، فأحنت الفتاة رأسها على الطاولة وتظاهرت بالنوم .

فجأة دخل أحد الفرسان الفندق ، ولمس قبعته بيده محيياً الحاضرين ، يتبعه خادمان أو ثلاثة ، ومعهم عدد من الكلاب فألقى على الممثلين نظرة هادئة متعالية ، ولكنه اندهش ، إذ رأى البارون بينهم .

احمرّ وجه البارون قليلاً ، لأنه يعرف المركيز (بروبير) وقد التقى به في إحدى جولات صيده ، وأسف لوجوده بصحبة الممثلين في هذه الحالة المزرية ، ولكن المركيز رجل مهذب الطباع ، فتجاهله لئلا يزيد من حرجه .

كان ينبغي للممثلين أن ينطلقوا من صباح الغد الباكر ، فرقدت النساء في كوخ فرشت أرضه بالتبن ، وتمدد الرجال في قاعة الفندق على الطاولات والمقاعد .

أما الفتاة الصغيرة فحين رأت أن العيون عنها غافلة ، تسللت خارج الفندق ومشت بخطوات هادئة حتى وصلت إلى منعطف الطريق ، فجعلت تجري كأنها غزالة هاربة .

كانت الشجيرات ترتفع على جانبي الطريق حيث يرتفع ضباب أبيض كثيف ، والقمر يرسل نوره فيضفي عليها مشهداً غريباً .. لكن الفتاة لم تحس بالرهبة لأنها اعتادت رؤيته فتابعت جريها .

وصلت أخيراً إلى أكمة تحيط بها عشرات من أشجار الصنوبر وكأنها غابة صغيرة ، فتوقفت ووضعت إصبعيها في فمها وأطلقت صفيراً عالياً ، فخرج من بين الأشجار رجل وقال لها :

– هذه أنت يا شيكيتا ؟ ما الخبر ؟ لم أكن أتوقعك ، كنت نائماً ..

كان الرجل في الثلاثين من العمر ، نحيف الجسم أسمر الوجه ، يرتدي ثياب الفلاحين الإسبان ، وقد علّق على خصره خنجراً كبيراً مما يستعمله شطار مدينة (فلانسيا) ، وربت الرجل على رأس الفتاة بيده الخشنة وقال :

– ماذا رأيت في فندق المعلم (شركوري) ؟

فقالت الفتاة :

– لقد جاءت عربة محملة بالمسافرين ومعهم خمس حقائب كبيرة ، موجودة في الكوخ ، وتبدو ثقيلة لأنه يلزمها رجلان لحملها .

فقال الرجل :

– قد يملأ بعض المسافرين حقائبهم بالحجارة ، ليظهروا بمظهر الأغنياء أمام أصحاب الفنادق .. سنرى ذلك .

فقالت شيكيتا :

– ولكن السيدات الثلاث يا أوغسطين يضعن حلياً ذهبية على ملابسهن ، والحسناء منهن تضع عقداً برّاقاً حول عنقها .. إنه رائع .



فقال اللص :

– لآلىء ؟ آمل ألا تكون زائفة .

فقالت شيكيتا بصوت حزين :

– يا صديقي أوغسطين ، إذا قطعت رأس السيدة فأعطني عقد اللؤلؤ ، فكم رصدتُ لك المسافرين وجلبتُ لك الطعام ، حتى حين كانت أسناني تصطك من الحمّى !

– أنت شجاعة ، ولكن لم نحصل على العقد بعد ، كم عدد الرجال ؟

– ستة ، واحد بدين قوي كثيف اللحية ، وواحد هرم واثنان نحيلان ، وواحد يشبه الثعلب ، وآخر يبدو عليه أنه من النبلاء على الرغم من ثيابه القديمة ، أما النبيل فمعه سيفه ، وأحد الرجلين النحيلين معه سكين ، وقد طلب مني شركوري أن أبلغك .

– حسناً ، سأكمن لهم .

وانطلق مع الفتاة داخل الدغلة ، فكشف الأغصان اليابسة عن حفرة واسعة ، وجذب تماثيل من القصب على شكل رجال وأوقفها على أرجلها ، ووضع فوق رؤوسها

قبعات كبيرة وألبسها ثياباً ممزقة ، فكانت تبدو في الظلام أشباح رجال .

وتمتم أوغسطين :

– هذه حالتي البائسة ، بدل أن تكون معي عصابة من المحاربين الأشداء ، أستعين بهذه التماثيل بثيابها الممزقة ، انظري إليهم يا شيكيتا ! هذا (ماتسكرب) الإسباني الشهم الذي تدلى من حبل المشنقة ، وهذا (إسكيفال) والدك ، اقرئي على روحه بعض الآيات ! لقد كان رفيق مغامراتي ! وهذا أبرع من استخدم الخنجر في المنطقة كلها ، ومات تحت التعذيب ولم يبح بأسماء أصحابه ، أليس من العار أن يموت هذا الرجل الشهم ؟ وهذا (فلورزيل) إنه يسافر في سفن الملك مجاناً ، فقد حكم عليه بالمؤبد ، وأحترمه أشد الاحترام لأنه معلمي وله دين في عنقي .. آه .. أيها الرفاق ، إنكم لترهبون الأعداء أحياءً وأمواتاً ، وإن أشباحكم كفيلة بإخافة المسافرين .

ثم وضع بأيدي هذه التماثيل عصياً منجورة على شكل سيوف ، ثم استلقى على العشب ، وتمددت الفتاة بجانبه وتغطت بعباءته ، فأحست ببعض الدفء ، وسافرت إلى بلاد الأحلام .

أيقظت اللص وشريكته ضوضاء عربة تسير على الطريق قرب الأكمة ، إنهم الممثلون ، النساء جالسات داخل العربة وعلى جانبيها يمشي سيغوياك والجبار وماتمور ، والشمس لم تشرق بعد .

كان البارون يفكر وهو ينظر حواليه ، فأبصر وسط شجيرة من السرو نقطة لامعة ، فقال لنفسه :

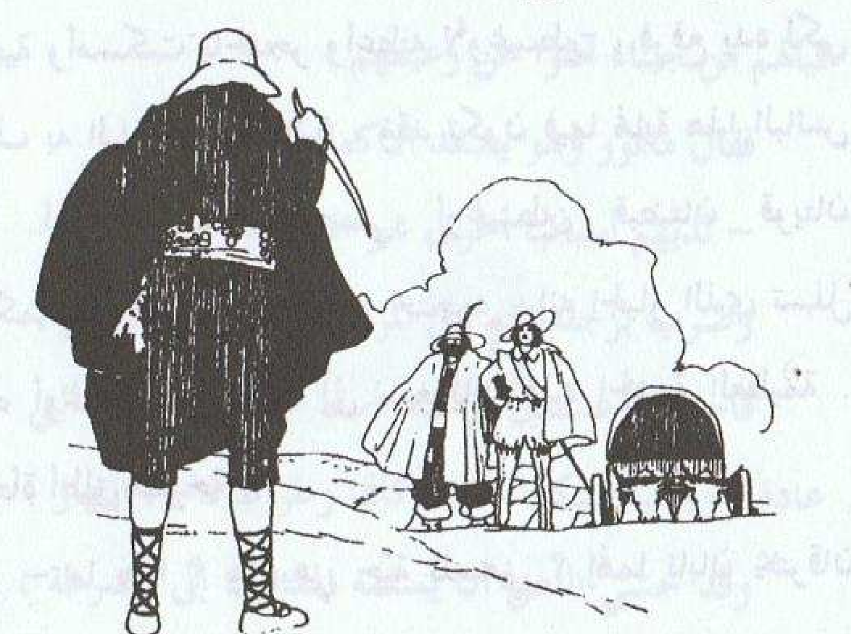
– كأنها النار في الشجيرة .

ولكن النقطة اللامعة تحركت وانتشر الدخان الأبيض واندلعت النار ، ثم انطلق صوت رصاصة استقرت على نير الثورين ، وكادت تنقلب العربة لهياجهما .

وقف أوغسطين على رأس العربة التي يحاول الممثلون الخروج منها ، ممسكاً بخنجره وهو يصيح بصوت هائل :

– هاتوا كيس نقودكم أو تموتون ! ولا تقاوموا لأن عصابتي ستفتك بكم جميعاً .

وما كاد اللص ينهي عبارته حتى انقضّ عليه سيغوياك بسيفه ، فتلقاه اللص بمعطفه الذي طواه على يده وقذف خنجره إلى معدة البارون .



ولكنه انزلق عن ثيابه وانحرف عنه ، وسقط الخنجر على خطوات منه ، فشحب وجه أوغسطين وهو يرى نفسه مجرداً من سلاحه ولا أحد ينجده ، ولكنه صرخ بأعلى صوته :

– أطلقوا النار يا رجال !

لعله يرهب الممثلين الذين تدافعوا للاختباء وراء العربة ، حتى سيغوياك على شجاعته أحنى رأسه قليلاً .

كانت شيكيتا تتابع ما يحدث من وراء شجرة ، فزحفت كالحية وأمسكت بالخنجر وأعطته لأوغسطين ، فرفع يده لكي يقذف به البارون مرة ثانية ، وقد تكون فيها نهاية هذا البائس لولا أن أمسكت بمعصمي أوغسطين قبضتان قويتان كالكماشتين أجبرته على رمي خنجره ، إنه الجبار الذي تسلل وراء أوغسطين وأسدى إلى سيغوياك هذه الخدمة العظيمة .

وفجأة أطلق صرخة :

– ما هذا ؟ هل هي حيّة تلسعني ؟ إنهما نابان يخترقان ساقي .

والواقع أن شيكيتا قد عضّت بطّة رجله كالكلب ، فلم يفكّ الجبار قبضته ، ورفسها رفسةً رمتها على مسافة عشر خطوات فوق الطريق ، وانحنى ماتمور فالتقط الخنجر وخبأه .

أشرقت الشمس ورمت بأشعتها الحمراء على الغابة ، فتبينت لهم الأشكال الغريبة التي كان عليها أن تطلق النار ، وقال المتحذلق :

– أظن أن بقية العصابة لم تطلق النار بسبب الرطوبة ، فياهم من جبناء تخلوا عن زعيمهم .

فقال ماتمور وهو يصعد الأكمة :

– لديهم أسباب أخرى غير الرطوبة .

وضرب برجله التماثيل المرتدية أسمالها إلى الطريق .

فأحنى أوغسطين رأسه أسفاً لفشل خطته التي تنجح عادة ، وبجانبه شيكيتا خائفة كأنها وطواط فاجأه النهار .

وقد خشي اللص أن يسلمه الممثلون إلى الشرطة ، ولكن مسرحية التماثيل أضحكتهم وقال الجبار :

– لقد أرهبت النساء ، وتستأهل لذلك حبل المشنقة ، ولكنهن عفون عنك وأعجبن بسعة خيالك .

– إني أستأهل الشفقة ، فأنا منكود الحظ أكثر مما تتصورون ، ولم يبق من عصابتي المنظمة سواي ، وأما الآخرون فقد اختطفتهم مني أعواد المشانق ، وزاد الأمر سوءاً أنّ هذا الطريق منقطع عن العمران ، ولا يمرّ فيه المسافرون ، وكل السبل المطروقة لها قطّاعها المشهورون ، وها أنتم ترون فشل خطتي التي كانت ستسدُّ جوعي أنا وهذه البائسة شهرين على الأقل ، وشجاعتكم اختطفت اللقمة من فمي ، فتصدقوا عليَّ إذ فشلت في سرقتكم .

فقال الجبار :

– هذا كلام صائب ، فقد عطّلناك عن ممارسة مهنتك ، وعلينا أن نعوضك عن الأضرار ، خذ هذين الدينارين لتسد بهما رمقك .

وأخذت إيزابيل من حقيبتها قطعة قماش فناولتها إلى شيكيتا ، فقالت الفتاة بشراهة :

– آه ، أريد العقد ذا الحبات البيضاء .

ففكت إيزابيل عقدها وأحاطت به عنق الصغيرة التي أحست بسعادة لا توصف ، والتمعت عيناها ببريق خاطف ، وقالت مخاطبة إيزابيل :

– أنت طيبة ، ولن أقتلك أبداً .



وغاب أوغسطين وشريكته بين أشجار الغابة ، وتابعت العربة طريقها .

وقالت إيزابيل والمتحذلق للبارون :

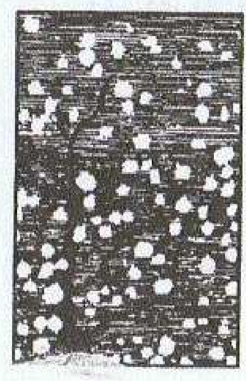
– لقد تصرفت كأنك بطل إحدى الروايات ، وكنت تظن مثلنا أن لقاطع الطريق عصابة مسلحة تدعمه .

فقال البارون بصوت رزين :

– حين يكون أصدقائي في خطر أُرخِص حياتي من أجلهم .

الفصل الثالث

ضربات القدر



انقضت مراحل هذه الرحلة على أحسن ما يرام ، حتى وصلوا إلى بلدة (بواتييه) ، فانقلب الطقس وأقبل الشتاء بخطواته العجلى ، وسقط الثلج والمطر .

وعلى الرغم من العروض التي قدمتها الفرقة في القصور والقرى التي مرت بها ، فإن الغلّة لم تكن وافرة ، وتدهورت حالتهم المالية ، وأنفقوا ما اقتصدوه ، بالإضافة إلى تلك الدراهم المعدودة التي دفعها إليهم البارون ، فاضطروا إلى بيع الثورين واستبدالهما بحصان ، ولكن أيَّ حصان ! فقد كان مهزولاً جائعاً ، لا يرى العلف إلا في أحلامه

لم يركب العربة سوى النساء ، وسار الرجال بجانبها لئلا يرهقوا ذلك الحيوان الكئيب ، وقد التفوا بمعاطفهم اتقاء البرد والرياح .

وتساءل البارون عمّا دفعه إلى مرافقتهم ، أليس خيراً له أن يموت ببطء في قصر آبائه المتداعي بدلاً من أن يتجول في الدروب على غير هدى ؟

قال المتحذلق وهو يحتمي بالعربة من نُدَف الثلج :

– يبدو أن السماء ترمينا بريش الأوز الأبيض ، فماذا لو تصدقت علينا بلحمه ؟

ولم يستجب أحد منهم لمزاحه فقد كان البرد شديداً والثلج يصفع وجوههم ، والحصان لا يقوى على جر العربة ، وينـــزلق في كل خطوة يخطوها ، فأمسك الجبار برسنه ودفع العجلات كلّ من المتحذلق والبارون وليآندر وسكابان ، وأما ماتمور فقد كان خفيف الوزن تدفعه الريح القوية إلى الوراء وتمنعه من السير .

وقال الجبار أخيراً :

– لنتوقف قليلاً ، فالريح شديدة ، وكنت أتمنى الوصول إلى القرية ، ولكن الحصان أرهقه المسير ولم يعد قادراً على الحركة ، لنجعل العربة في مواجهة الريح ولنَحْتَمِ بها .

فنفذ الممثلون اقتراحه والتصق بعضهم ببعض ، وقد ازرقّت شفاههم وارتعدت أطرافهم وعضهم الجوع بنابه في هذه الطريق المتوحشة المنقطعة عن العمران ، وهدأت العاصفة بعض الهدوء ، وانقطع سقوط الثلج ، وظهر الريف على مدّ البصر في حلة من البياض الناصع . وقال بلازيوس :

– أين ماتمور ؟ فهل حملته الريح إلى سطح القمر ؟

وتلفتوا يبحثون عنه فلم يجدوه في العربة ولا قريباً منها ، وصاح الجبار بأعلى صوته يناديه ، فلم يسمع جوابه ، وقال بلازيوس :

– هذا عجيب .. عسى ألا يكون قد أصابه مكروه !

وقال البارون وقد اشتد جزعه :

– لا أظن ذلك ، ولعله التجأ إلى بعض الأشجار يحتمي بها ، ولن يلبث أن يلحق بنا .

وانتظروا بعضاً من الوقت وهم ينادون في كل صوب ، وأقبل الليل ولم يظهر صاحبهم ، وفجأة سمعوا نباح كلب كأنه عواء الذئب الكئيب ، فقال الجبار :

– لقد أصاب صاحبنا مكروه ، سارعوا إلى البحث عنه .

واجتمعت النساء في جوقة يتلون بعض الصلوات ، وحمل الرجال فانوساً ومضوا باحثين عنه وهم ينادونه : (ماتمور .. ماتمور ..) بكل ما في أصواتهم من قوة . ولم يستجب لندائهم سوى سكون الطبيعة .

وكان سيغوياك حديد البصر فلمح شبح إنسان تحت شجرة ، فجروا إليها ليجدوا ماتمور البائس شاحب الوجه وقد غمره الثلج ، ورفع الجبار يده فسقطت لا حياة فيها .. لقد غادر ماتمور مسرح الدنيا إلى الأبد ..

وقال الجبار :

– ماذا نفعل بجثمانه .. لن نتركه للذئاب والغربان وإن كان نحيف الجسم .

فقال بلازيوس :

– لنحمله معنا في العربة ، فقد كان صديقاً مخلصاً ، وحين نصل إلى إحدى القرى ندفنه بما يليق به من الاحترام .



ولمّا رأتهم زربين يحملونه بين أيديهم قالت :

– هل ماتمور مريض ؟

– لا .. ليس مريضاً ، بل إنه شفي من كل الأمراض التي تصيب الناس في حياتهم اليومية .

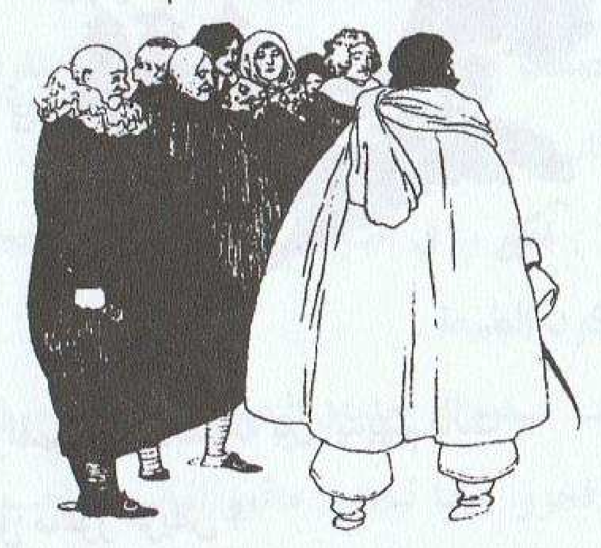
وهتفت إيزابيل فزعة :

– هل مات ؟ ! ..

فصاح بلازيوس ليخفي حزنه :

– لا .. لم يمت بل تجمدت أطرافه .

بكى الممثلون صديقهم ، ونزلوا من العربة التي سجّوا فيها جثمان ماتمور ، ثم أمسك الجبار برسن الحصان وانحدر هادئاً رزيناً إلى القرية التي سيقضون فيها ليلتهم .



وكانت المرحلة شاقة والطريق وعرة ، وما إن انقضت ساعتان حتى أشرفوا على أول منازل القرية ، ولم يستقبلهم صاحب الفندق بالترحاب ، فكان طعامهم رديئاً ونومهم قلقاً ،

ونهضوا مبكرين لكي يدفنوا ماتمور دون أن يثيروا فضول سكان القرية .

ووصفت لهم صاحبة الفندق مكاناً لدفنه ، في أرض خلاء يستخدمها أهل القرية مدفناً للحيوانات . ولكن بعض الخبثاء من المجانين جعلوا يرمونهم بالحجارة وهم يدفنون ماتمور ، وأراد البارون أن يتصدى لهم فقال له الجبار :

– إن جيشاً من الأقزام لا يهزم واحداً من العمالقة ، وأخشى إن قتلت خمسة أو ستة منهم أن تتعقد الأمور .

فانطلقوا من هذه القرية الظالم أهلها يدفعون عربتهم ليعينوا الحصان على جرّها ، وكلٌّ منهم يفكر بذلك اليوم الذي سيُدفن فيه على حافة الطريق .

وسأل الجبار بلازيوس الذي كان يتحسر جزعاً :

– بماذا تفكر ؟ أتفكر بماتمور البائس ؟ .

– نعم .. ولكني أفكر بحالتنا أيضاً ، وإني لأحسد النعامات لأنها تقتات بالحصا ، فأنا الآن قادر على التهام ديكور مسرحنا

كله ، لقد كان القدماء من الحكمة بحيث يولمون الولائم بعد الجنازة لكي يحفظوا على الأحياء صحتهم وعافيتهم ، أتدري أني لم أعرف معنى الشبع منذ أيام ؟

فقال الجبار :

– نعم .. إن مؤونتنا قليلة ، ولكن ينبغي لنا أن نتغذّى ، أفرغ ما في العربة من زاد ، وسوف أفرش غطاء المائدة .

وبعد نصف ساعة كان الممثلون جالسين أمام غطاء مائدة من ديكور المسرح وقد وضعت عليه قطعة لحم قديمة وبقايا جبن عفن وكسرة خبز يابس ، وأما الماء فقد كان وفيراً . قال الجبار وهو يمسح يده بلحيته :

– الآن وقد شبعنا ، أو بالأحرى لحسنا الصحون ، ماذا نفعل ؟ ولم يبق معنا سوى ثلاثة دنانير أو أربعة ، وباعتباري أمين الخزينة أنذركم بالإفلاس ، فما العمل ؟ وهذا الحصان يجود بأنفاسه الطاهرة أمام عربتكم الموقرة ، ويستحيل علينا الوصول إلى (بواتييه) قبل يومين .

فقال المتحذلق :

– أرى أن نتوقف في أول قرية نلقاها ونقدم فيها عرضاً ، فقد انتهى العمل في الحقول ، وجاء وقت السهرات الليلية ، سوف نستعير إحدى المزارع ونجعل ثمن الدخول عيناً لا نقداً ، فالصفوف الأولى ثمنها دجاجة أو فخذ لحم ، وأما الصفوف الثانية فثمنها حمامتان أو دزينة بيض أو حزمة خضار أو رغيف خبز كبير ، فلن يملأ هذا جيوبنا بل يسدّ جوع بطوننا ، وحين نصل إلى بواتييه فإني أعرف فيها صاحب فندق يطعمنا بالدَّين .

وسأل سكابان :

– ولكن أي مسرحية نمثلها ؟ إن مسرحية (عنتريات الكابتن ماتمور) مستحيلة بعد وفاة صاحبها ، فهي تتطلب الصفع واللطم والسقوط المضحك ، هذا ما يتوقعه أهل الريف من المسرحية .

وتبادل الممثلون نظرات الحيرة ، وإذا سيغوياك ينهض وقد احمرّ خداه من العاطفة التي يفيض بها قلبه وقال :

– لعلني لا أملك موهبة ماتمور ، ولكني لا أقل نحولاً عنه ، وسوف أُمثل دوره قدر استطاعتي ، فقد كنت رفيقكم في السرَّاء ، وآمل أن أكون أخاكم في الضرَّاء ، ومن عساه يذكر سيغوياك في الناس ؟ لقد محا البؤس اسمي التليد من قائمة النبلاء ، وسوف أرمي لقب البارون في قعر صندوق ثيابي المهملة ، وآمل ألا يتعرف عليّ البؤس في زيّي الجديد ، سيكون اسمي من الآن فصاعداً (الكابتن فراكاس) ..

وهتفت الفرقة كلها :

– عاش الكابتن فراكاس .

وارتفع تصفيق الجميع عالياً .

واصلت الفرقة رحلتها والريف يمتد حولها أبيض مهجوراً ، والريح تعصف ولا تبدو أمامهم قرية يأوون إليها ، وكان الحصان الشهم يبذل ما بوسعه لكي يجذب العربة ، ولكنه يترنح يمنة ويسرة ويحتضر واقفاً ، ثم هوى على الأرض

وأطلق زفرة عالية لم تدفع عنه الموت ، وتمدد على خاصرته واستراح من الحياة .

وصرخت النسوة لهذه الزلزلة التي أصابت العربة بعد أن هوى حصانها وسارع الرجال لنجدتهن ، وقال المتحذلق :

– لقد جاد حصاننا المجنح بروحه ، فهذه السهول شؤم علينا .

وزمجر لياندر :

– ماذا ينتظرننا ؟ هل نجر العربة بأنفسنا وننقلب حيوانات ؟ ما الذي دفعني إلى أن أكون ممثلاً .

وصاح الجبار :

– هدوءاً .. ليس الآن وقت العويل ، فالمصائب محكّ الرجال ، وسوف ننقسم إلى فرقتين : الأسرع من الفرقة الأولى تنطلق في الريف بحثاً عن النجدة . بلازيوس ، فراكاس ، سكابان ، هيا أيتها القطط الهزيلة ، أسرعوا وائتونا بالدعم المادي والمعنوي ، وسأبقى مع لياندر لحراسة العربة مع النساء .

وما كادت الطليعة تنطلق حتى ظهرت نجمة صغيرة حمراء فوق إحدى الهضاب ، والتمعت بعيداً عن الطريق .

فقال المتحذلق :

– إنها النجمة التي يهتدي بها الرحالة ، وهي فأل خير ، تأويله شمعةٌ أو قنديلٌ ، وتعبيره غرفةٌ مغلقة دافئة ، تقدموا يا أصحاب إلى منار النجاة ونجم الهدى ، تقدموا وليحمل كل منكم جزءاً من الديكور ، فهو خفيف على الأكتاف والظهور .

وانطلق الممثلون في ظلام الليل يعبرون الحقول البيضاء ، وقد غاصوا في الثلج إلى صدورهم ، وبعد مائة سقطة وسقطة وصلوا إلى مبنى ضخم تحيطه الأسوار ، وتدل المعدّات التي أمامه على أنه مزرعة .

وتصاعد نباح كلاب الحراسة وارتفعت أصوات الرجال واستيقظت المزرعة كلها .

فقال المتحذلق لهم :

– إن عددنا يخيفهم ، وأنا رجل هرم لا أخيف أحداً فدعوني أفاوضهم وحدي .

وكان الرأي صائباً ، واقترب بلازيوس من الباب وطرقه ، ففتحه رجل طويل القامة يحمل مصباحاً ، فما كاد يضيء وجه بلازيوس حتى احتضنه الرجل وتبادلا التحية والقبلات ، وصاح بهم المتحذلق فرحاً :

– تعالوا أيها الرفاق ، فلا خوف عليكم إذ أنتم أمام أحد أبناء (المسرح) الأوفياء ، ها هو (بلومبر) الذي دميت أيدي الناس في التصفيق له .

وكان بلومبر من المغامرين الذين تقلبت بهم صروف الدهر ، ومارس التمثيل مدة ثم هجره ، إذ ورث عن أبيه هذه المزرعة وملحقاتها .

بعد نصف ساعة كانت الفرقة جالسة وراء طاولة عامرة في قاعة واسعة دافئة يأكلون ويشربون ، وبلازيوس يروي لصاحبه بلومبر مصائبهم الأخيرة ، فقال بلومبر :

– لقد قسا الزمان عليكم ، ولكني لا أترك بلازيوس وصحبه تتناهشهم أنيابه ، وسوف آتيَ بعربتكم من الغد ، وأنصب لكم في مزرعتي مسرحاً ، ولعل سكان البلدة المجاورة يتوافدون إلينا .. وإذا لم تكفكم عائدات التمثيل ، فإن لديّ من المال صندوقاً عامراً أضعه بين أيدي الرجال .

فأثنى الممثلون على بلومبر ومضوا إلى مضاجعهم هانئين .

في تلك الليلة المظلمة القارس بردها كان رجل يمشي على الطريق حاملاً فتاة صغيرة دامية القدمين ، وتوقف فجأة إذ رأى على حافة الطريق العربة التي هجرها الممثلون قبل ساعات .

قال وهو يضع الفتاة على الأرض :

– هذا مأوى لنا ياشيكيتا ، قد نستريح فيه بضع ساعات وباريس بعيدة ، ولعلنا نجد في العربة بعض النقود . وفتشت شيكيتا العربة فلم تجد سوى العلب الفارغة وقطع من الديكور لا فائدة فيها ، فقال أوغسطين يائساً :

– لابأس ، نامي في العربة قليلاً وسوف أحرسك .

وعزم على أن يظل يقظاً ، ولكن غلبه النعاس ، فلم يستيقظ إلا على زفير ساخن يلفح وجهه ، ففتح أجفانه ليجد عينين فوسفوريتين تحدقان فيه .

فتمتم اللص قائلاً :

– لا تتقاتل الذئاب فيما بينها يا ولدي !

وبسرعة خاطفة أحكم قبضة يده اليسرى على عنق الذئب وغرس خنجره في قلبه ، ثم أيقظ شيكيتا فلم تشعر بالفزع لرؤية الذئب القتيل .

فقال أوغسطين :

– لنرحل ، فقد تأتي عشرات الذئاب ، ولا أريد أن أغمض عيني ثم أفتحها وأنا في معدة ذئب منها ، وأما أنت فلا تصلحين إلا لقمة واحدة سائغة لهم ، أليس كذلك ؟

فقالت شيكيتا بصوت متوحش :

– لقد عادت إليّ قواي بعد هذه الغفوة ، ولكن إذا أبت قدماي إطاعتي ، فحُزَّ رأسي بسكينك وارمني على حافة الطريق لئلا أكون عبئاً عليك .

انطلق قاطع الطريق والفتاة يمشيان الليل بطوله ، فهما كطيور الظلام يخشيان النهار لئلا يُسألا عما قدمت أيديهما من آثام .

صباح الغد جاء الجبار مع خادم بلومبر ليسحبا العربة فلم يجدا من الحصان سوى عظامه وعظام ذئب ، ومن حولها آثار حيوانات وبشر انطبعت على الثلج . قال الجبار لأصحابه الممثلين :

– نجونا البارحة من زيارة قاتلة .

قال ذلك ثم دفع إلى إيزابيل موساً يطوى وقد نقش على نصله هذا الشعار :

" إن عضك الثعبان بنابه المميت

فلن تجد ترياقه في الحوانيت " .



وكان الجبار يجلب بقايا الديكور ، أما سكابان فقد انطلق إلى القرية المجاورة يقرع الطبل داعياً سكانها إلى حضور المسرحية :

" هذا المساء الفرقة المسرحية للممثل العظيم (هيرود) التي قدمت عروضها أمام أصحاب التيجان والأمراء ، تنتهز مناسبة مرورها بالمنطقة إلى باريس حيث ينتظرها البلاط الملكي لتقدم لكم لليلة واحدة فقط ، رائعة المسرح الكوميدي بعنوان (مغامرات الكابتن فراكاس) بملابس جديدة ، ومناظر مسرحية مبتكرة ، وضحك متواصل .. ستقدم المسرحية في مزرعة الأستاذ بلومبر ، ولأن الفرقة تعمل من أجل تقدم الفن المسرحي لا من أجل الغاية المادية ، فإننا نقبل الدفع نقداً أو عيناً من المواد الغذائية ، فليعلم الحاضر الغائب ! " .

في المزرعة نصبت ألواح خشبية فوق براميل لتكون مسرحاً ، واستعيرت أربعة مقاعد طويلة من المقهى المجاور ، وأضيئت الشموع المثبتة في حلقات على الحائط ، وبدأ التدريب على المسرحية .

كان سيغوياك سريع البديهة حاد الذكاء مرن الحركة ، يبتكر الحوار الملائم ، ولكنه لا يجيد تمثيل تلقّيه للصفعات والضربات ، ويحس ببعض المهانة لها ، فكان زملاؤه يخففون منها ما أمكنهم .

وحضر التدريبات المسرحية بلومبر ، وهو ممثل قدير فقال له ينصحه :

– يجب أن تتصرف على طبيعتك ، وتحافظ على هذه الحركات التي توصف بها شخصية (المتبجّح) وتميز سلوكه ، وينبغي لك أن تبتكر وتبدع وتجتهد وتصنع ، ولا تنس أن المقلد يبقى في المرتبة الثانية دائماً ، وتتصف هذه الشخصية بتظاهرها بالشجاعة وادعائها الشراسة ، ولكن إذا واجهت

المواقف الصعبة فشلت وأصابها الرعب ، حاول أن تجعل صفات الشخصية تنبع من داخلها ، لا من الحركات والقفزات السخيفة التي يضحك لها الجمهور .

واتبع سيغوياك نصائح هذا المعلم فأصاب نجاحاً عظيماً صفق له زملاؤه ، وتنبؤوا له بمستقبل زاهر .

تحدد موعد العرض الساعة الرابعة بعد الظهر ، وقبل ساعة ارتدى (سيغوياك) ثياب المتبجّح التي وسّعتها له السيدة ليونارد ، وتحسَّر البارون وهو يرتديها لتمثيله دور الجبان الذي يتظاهر بالشجاعة ، على حين أنه فارس مقدام لا يخشى الأخطار ، ولكنّ للدهر أحكامه ، وهو الذي رماه في هذا المأزق الحرج ، إذ لا سبيل إلى لقمة العيش سواه .

ونجحت المسرحية نجاحاً باهراً ، وصفق له الحاضرون إعجاباً . وأما في قصر سيغوياك القديم فقد تلفتت صور أجداده المعلقة على الجدران ، وقال أتعسها مظهراً : " وا أسفاه ! لقد أزرى بك الدهر بعدنا .. " .

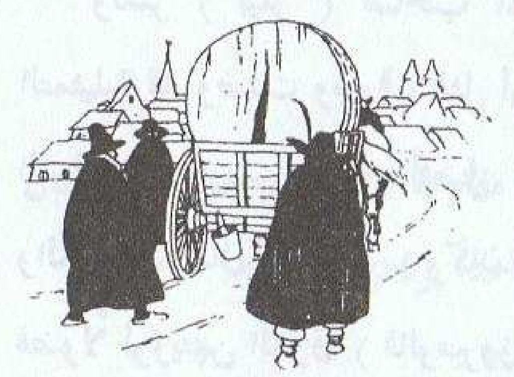
وجلس بيير في المطبخ حزيناً ما بين بلزبوت وميرو وهما ينظران إليه طويلاً ثم قال :

– أين أنت الآن ياسيدي الفتى ؟

وسالت دمعة على خديه المتجعدين .

الفصل الرابع

من الهزلي إلى المأساوي



في اليوم التالي من تقديم العرض أعطى بلومبر لبلازيوس كيساً فيه مائة دينار وقال له :

– هذه النقود صنعت مدورة لكي تتدحرج من شخص إلى آخر ، وأنا لا أحتاجها هنا لأني أعيش من مزرعتي ، فإن شئت خذها ، وإذا لم تسمح لك كبرياؤك فاستدِنْها من صديقك القديم .

فعانقه بلازيوس والدموع تترقرق في عينيه ، واتجهت العربة إلى طريق (بواتييه) عامرة بالمؤونة ، يجرها حصانان قويان أعارهما بلومبر للفرقة .

ودخل الممثلون (بواتييه) دخول المنتصرين ، ورحّب بهم صاحب فندق (سلاح فرنسا) أجمل الترحيب لأن الممثلين يجلبون له الزبائن .

ونشر (بيلو) صاحب المطعم في بواتييه أن الفرقة التمثيلية قد وصلت وسوف تمثل أروع المسرحيات مثلما تمثلها الفرق في باريس ، أو أفضل منها ، وشاع بين النخبة والكبراء ، جمال الممثلات ، وكان أكثر النبلاء وسامة وأشدهم فضولاً لرؤيتهن الدوق (فالومبروز) ، وهو شاب في العشرين جميل المظهر بالغ الثراء ، جذب إليه أنظار الفاتنات في بواتييه كلها .

ولكن مزاجه المتقلب وكبرياءه وحبه للسيطرة جعلته لا يرضى إلا بما صعب مناله ، فكان يقول لصديقه الفارس (فيدالنك) :

– لا أبالي بالثناء الذي يتقاطر عليّ كلما نطقت بكلمة واحدة ، هذا يسئمني ، إن مدخولي ألف إيكوس ذهباً في

السنة ، وسأصبح أميراً بعد وفاة والدي ، ولديّ أفضل خيول فرنسا وأحسن كلاب صيد فيها ، ومجوهراتي وتحفي لا مثيل لها ولكنني أشعر بالسأم .

فسأله فيدالنك بدهشة :

– ماذا يرضيك إذن ؟

– لا أدري .. ألمٌ ما أو مقاومةٌ لإحدى نزواتي ، لأني أنال ما أريد بسهولة .. ولا أظن أحداً يرفض لي طلباً .

فقال فيدالنك وهو يداهنه :

– بل يستحيل ذلك !

وقد شاء الدوق أن يروّح عن نفسه بالتفرج على الممثلين وهم يحفظون أدوارهم ، كما دخل الأثرياء والنبلاء إلى الكواليس ليشهدوهم وهم يضعون المكياج على وجوههم ، فكان الممثلون يبذلون ما بوسعهم لإرضاء جمهور النخبة هذا .

وسرعان ما بيعت الأماكن كلها لنبلاء بواتييه ، فكان جمهوراً يختلف عن جمهور القرية البسيطة .

ونصّب بلازيوس نفسه أستاذاً على سيغوياك ، فكان يستمع إلى نصائح هذا الممثل العظيم ، ويمرّن صوته على التدرجات النَّغمية والفصاحة وحسن الإلقاء ، واقترح عليه أن يجعل على وجهه قناعاً يغطي جبهته وأنفه ، ليضفي عليه مزيجاً من الخيال والواقع الملائم لدور الكابتن فراكاس الذي يتراوح بين الزيف والحقيقة .

وأعجب سيغوياك بفكرة القناع النِّصفي حالاً ، لأنه يلائم نسبه النبيل واحترامه لأسلافه ، فلا يتعرف عليه أحد ، وكأنه روح تسكن جسد (الكراكوز) وهو يحرك خيوطها فلا تناله المهانة .

وبلغ من حب بلازيوس له أن صنع له القناع بنفسه ، فكان له أنف أحمر كبير وحاجبان كثيفان على شكل حرف ثمانية ، وشاربان طويلان معكوفان ، فتختفي تحت هذا القناع ملامح البارون الشاب . وحين ظهر سيغوياك أمام زملائه ، هنؤوه على الطابع الجديد الذي أعطاه لشخصيته .

ولكي يتناسق مع هذه الشخصية ، اصطنع مشية خاصة بها ، فكان يرمي ساقيه إلى الأمام دون أن يلوي ركبتيه .

وقالت له إيزابيل :

– هذا رائع ، لأن قناعك وملابسك ومشيتك تلائم الكابتن الإسباني المتبجح .

وكان صوتها يغرد كالعندليب وهي تنطق بهذه الكلمات ، فالشفقة التي أحست بها تجاه صاحب قصر البؤس الحزين قد تحولت إلى صداقة وادعة تتضاعف يوماً بعد يوم .

وأما سيغوياك فقد أكنَّ في قلبه حباً عميقاً لإيزابيل ، وبدأ يحلم بأن تكون زوجته حين تبتسم له الأقدار ، وفاتحها بالأمر ، ولكنها اعترضت عليه بأن الفرق شاسع بين نبيل شريف الأصل وبين ممثلة فقيرة لا تعرف اسم أبيها .

وقالت له ذات يوم :

– لعلني من أصل شريف لا يقل عنك نبلاً ، ولكن لا دليل لدي على ذلك ، وقد كانت أمي ممثلة تزوجت أحد

النبلاء سراً ، وما زلت أذكر وجهه الوسيم حانياً عليَّ في سريري ، وماذا حدث بعد ذلك ؟ لست أدري ، فقد كانت أمي دائمة الشحوب والكآبة ، وتوفيت ولي من العمر أربع سنوات ، وأورثتني هذا الخاتم العقيق وعليه نقش غريب ، وقد دخلت فرقة بلازيوس منذ عشرين سنة ، وبقيت ممثلة لأن أبي لم يسأل عني أبداً .

فقال لها :

– إن لدي إحساساً بأنك من أصل نبيل ، فلديك من الجمال والكبرياء ما لا يوجد لدى ممثلة من الدهماء ، ولا تقل روحك جمالاً عن بهاء حسنك ، فلِمَ ترفضين لقب بارونة سيغوياك إذا كنت جديرة به ؟ فأنا لا أقدم لك سوى الفقر ، ولكن اسمي بريء من العار ، فاقبليه !



ومسّ هذا الكلام شغاف قلبها ، فهي أدرى بعزة سيغوياك وأنفته ، ولكنها رفضت لأنها لم تشأ لزواجهما أن يخالف المتعارف عليه في ذلك الزمان ، وأن تهدم مستقبل الرجل الذي تهوى ، وبلغ بها الوفاء الذي لا تعرفه سوى القلوب الصادقة أن ضحت بسعادتها من أجل مستقبل سيغوياك .

وتنازعت البارون عاطفتان ، عاطفة الفخر بهذا الحب الصادق ، وعاطفة الأسف لرفض إيزابيل الزواج منه ، ولكنه جعل الزمان حليفه لعله يثني الفتاة عن رفضها ، واعتبر نفسه خطيباً لها . وكان زملاؤهما ينظرون بعين الرضا إلى هذا الرباط

المقدس ، حتى إن بلازيوس والجبار اللذين يعرفان إيزابيل منذ طفولتها ، أسعدهما أن يقدّر هذا النبيل الأصيل مواهب الفتاة التي نشأت تحت رعايتهما . وذات يوم قال المتحذلق لسيغوياك :

– يا سيدي البارون ، حين تغدو ثرياً وسعيداً في زواجك ويموت الكابتن فراكاس ، اجعل الجبار مسؤولاً عن ثيابك ، واجعل الداعي لك مسؤولاً عن طعامك .

فقال سيغوياك بابتسامة حزينة :

– هذا وعد ، ولكني أخاف ألا أفي به أبداً ، ويبقى (قصر البؤس) على حاله .

فقال بلازيوس بلهجة فيلسوف :

– إنَّ غداً لناظره قريب ، ومن يعش يره .

كان الممثلون يقومون بتدريباتهم على المسرحية ، حين وقف دوق فالومبروز بجرأة أمام إيزابيل وقال لها :

– لم تشهد مملكة فرنسا كلها امرأة في مثل بهائك ، وإنك لتتألقين في أيِّ دور تمثلينه .

فاحمرت إيزابيل خجلاً لهذا الثناء ، وحيَّته بلطف ، ومشت لكي تأخذ مكانها على الخشبة ، ولكنه أمسك بيدها وقال وقد قطب حاجبيه :

– لا تهربي هكذا ، حينما يشرّفك دوق فالومبروز بتوجيه الثناء إليك .

وأرادت إيزابيل أن تجذب يدها لتستأنف عملها ، فأحكم الدوق قبضته على معصمها ، ولكنه اضطر إلى تركه حين أطبقت على يده كماشة من حديد ، ووقف قبالته سيغوياك وهو يفور من الغضب .

فصرخ الدوق ، وقد أمسك بمقبض سيفه :

– أيها التافه الحقير !

ولكنه تردد مفكراً ، فليس من تجرّأ على لمسه سوى ممثل لا قيمة له ولا ينبغي أن يتنازل لقتاله ، فقال :

– سآمر خدمي بتكسير عظامك .

فقال له البارون :

– حذار أيها السيد ، فإن عظمي قاس تتكسر عليه العصيّ كالزجاج الهش ، ولا أُصفع إلا في المسرحية فقط .



فشحب وجه دوق فالومبروز المتعجرف ، وقال بكبرياء :

– لا أتكلم مع قناع .

فقال سيغوياك :

– سأريك وجهي في الزمان والمكان المناسبين ، وسوف تسيئك رؤيته أكثر مما تسيئك رؤية قناعي ، ولكن لنتوقف الآن فسوف أتأخر عن عملي .

وأعجب الممثلون بشجاعة البارون ، فهم على علم بشرف أصله ، ولم يدهشوا كما فعل الحاضرون الذين ذعروا لجرأة سيغوياك ، وبلغ من تأثر إيزابيل أن زالت المساحيق عن وجهها ، فاضطرت زربين إلى إعادة تجميلها .

وعلى الرغم من هذا الحادث فإن المسرحية قد عرضت ، وأما فراكاس فكان شديد الحماسة لدوره بسبب هذا الحادث ، فكان يهدر كالنمر الجريح مما أتعب زملاءه وبذلوا جهدهم في متابعته .

وأما فالومبروز الذي اهتاج لإهانة هذا الممثل له ، فقد عاد إلى قصره وهو يرسم ألف خطة للانتقام منه ، أقلها أن ينهال عليه ضرباً حتى يتركه في الساحة يعاني سكرات الموت ، فاستدعى كبير خدمه وقال له :

– أيقظ (باسك) و (أزولان) و (ميرونديل) و (لابريش) إن كانوا نائمين ، واطلب منهم أن يتسلحوا بهراواهم وينتظروا ذلك الممثل المدعو الكابتن فراكاس على باب المسرح ، ولينهالوا عليه ضرباً دون أن يجهزوا عليه ، لئلا يقال إني خفت منه . وليصيحوا به : (خذها من دوق فالومبروز) لئلا يجهل غريمه .

بعد أن انتهت التدريبات خرج سيغوياك من المسرح ومعه الجبار ، وقد توقع الهجوم ، فاحتفظ بسيفه وهو نصل إسباني مثلوم ولكنه في يد الرجل الشجاع ، يردّ الضربات بأقوى منها ، وحمل الجبار العصا التي يخبط بها أرض المسرح ليعلن عن افتتاح المسرحية ، وأما سكابان فكان أعزل ولكنه بارع في استخدام قدميه لركل من يهاجمه ، فظلّ وراء سيغوياك ، ومشت النساء في المقدمة وراء بلازيوس وليناندر .

كان سيغوياك وصاحباه يمشون في الدرب المعتم المتعرج المؤدي إلى الفندق ، حين برز له الخدم الأربعة من أحد الأبواب وهم يصرخون :

– اقتلوه .. اقتلوه .. خذها يا كابتن فراكاس من سيدي الدوق !

فلفَّ سيغوياك عباءته على ذراعه اليسرى وتلقى بها هراوة أزولان ، وطعنه طعنة نجلاء في صدره فرماه في الساقية ، واندفع باسك بشجاعة على الرغم من فشل صاحبه ، ولكن نالته ضربة سيف على رأسه جعلته يرى النجوم تلتمع أمام عينيه في الليل الدامس ، وتمدد بجانب رفيقه .

وأطارت عصا الجبار هراوة ميرونديل من يده شظايا ، فلمّا وجد نفسه أعزل أطلق ساقيه للريح . وركل سكابان لابريش ركلة جعلته يعض بها الثرى .

وانتصر الممثلون وعادوا إلى الفندق سالمين . فَرَجَتْ إيزابيل سيغوياك ألا يوغل في عداوته لدوق فالومبروز القوي ، فقال لها بصوت رزين :

– لقد انتقم الممثل من هؤلاء الخدم ، وأما البارون فلم يثأر لشرفه بعد .

وما كاد يكمل كلامه حتى تردد في القاعة صوت يأمر وينهى ، فصاح البارون مبتهجاً :

– سيدي المركيز بروييز !

والتفت إلى الفارس الذي التقى به الممثلون حين توقفوا في فندق شركوري . وعرف المركيز سيغوياك فوراً ، فحياه باحترام ، فاقتربَ منه البارون سيغوياك وخاطبه قائلاً :

– أشكر لك احترامك لرغبتي في التخفي ، ولكنك تعرف أصالة نسبي ، وتشهد بأن دم السيغوياك نبيل منذ ألف عام ، لم تدنسه الهجنة ، وأنَّ من يحملون هذا الاسم لم يجبنوا في الدفاع عنه .

فقال المركيز :

– والله إنك لكريم الأصل رفيع النسب ، وقد كان جدك (بلاميد سيغوياك) يهتز حوله ألف رمح ، وكان صديق جدي (هيغو بروييز) فماذا تريد مني ؟

فروى له ما حدث ورجاه أن يبلغ دوق فالومبروز تحديه ودعوته إلى المبارزة ، فقبل المركيز هذا الطلب ، وتقدم من صباح الغد إلى قصر الدوق الشاب .

واستُقبِل المركيز بما يليق به من الإعظام ، فقال للدوق :

– إني أعرف البارون سيغوياك شخصياً ، وإن أملاكه مجاورة لأملاكي ، وقد أخطأتَ في حق هذا النبيل إذ أرسلت خدمك لتأديبه ، وهذا عار لا يمحوه إلا الدم المهراق .

ودهش الدوق لهذا البارون الذي ينتحل دور الكابتن فراكاس وقال للمركيز :

– إني أقبل مبارزته ما دام من النبلاء .

– ولكن حذار فهو من أبرع نبلاء غاسكونيا في المبارزة .

– سنرى إن كان البارون سيغوياك بارعاً في صد الطعنات براعة الكابتن فراكاس في رد الضربات . أيها المركيز سأرسل إليك شاهدي ، الفارس فيدالنك ليحدد معك شروط القتال .

وتحدد الموعد غداً ، لأن سيغوياك لم يشأ أن يدخل المبارزة قبل تقديم العرض المسرحي ، لئلا يُلغى إذا جُرح أو قُتل ، فكان يقضي الساعات السابقة للعرض في استظهار دوره والتدرب على السلاح ، وتبين له أنه لم ينس تلك الدروس البارعة التي علمها إياه بيير أستاذ المبارزة زمناً طويلاً في قصر البؤس .

لقد كان البارون بمرونته وإقدامه وتعوده على المسايفة أحد المبارزين المعدودين في عصره ، دون أن يدري ذلك ، ولعله لم يتبع القواعد المدرسية التي تعلمها النبلاء ، ولكن يندر أن يلمس أحدهم جسمه بطرف سيفه .

بدأ العرض الساعة الثالثة ، وكان المسرح غاصاً بالمتفرجين ، وكانت المسرحية الأولى من تمثيل سيرافين

وليباندر ، ثم تلتها مسرحية (عنتريات الكابتن فراكاس) ، فأبدع سيغوياك في تمثيل دوره ، تدعمه زربين وسكابان ، وكذلك الجبار وليونارد ، وأما إيزابيل فقد لمحت دوق فالومبروز على يمين المسرح فاضطربت ، ولاحظ المتفرجون أنها لم تتقن دورها ، وكانت تعلم أن سيغوياك سيبارز الدوق غداً ، فكانت ترتعد خوفاً على البارون الشاب لا لارتيابها في شجاعته ومهارته ، بل جزعاً من الخطر المحتمل ، وسمعت تصفيق المتفرجين بعد انتهاء المسرحية وهي غارقة في أحزانها . وأمضت الليلة بطولها تدعو الله وتنتحب .

كان موقع المبارزة على أبواب بواتييه ، قرب منـــزل مهجور يصلح لكي يجزّ الأشراف أعناق بعضهم بعضاً بعيداً عن العيون .

وصل دوق فالومبروز والفارس فيدالنك يتبعهما حلاق مختص بالجراحة إلى موقع المبارزة ، وقد سبقهما إليه سيغوياك والمركيز بروبير . وتبادل النبلاء الأربعة التحية باحترام ، وكان

الهدوء يغمر وجه الدوق الشاب الشهم الواثق من مهارته ، ولم يظهر الانفعال على سيغوياك وإن كانت هذه أولى مبارزاته .

وقاس المركيز والفارس سيفي المبارزة فكانا متساويين ، ونزع كلُّ مبارز عباءته وقبعته وتأهّب .

وقال المركيز :

– هيا .. ولتكن مبارزة حامية .

فقال الفارس

– سنشهد مبارزة بين الشجعان .

توقع الدوق أن يقابل خصماً ضعيفاً ، ففاجأته مرونة نصله وثباتِ يده ، فأخذ حذره وجعل يهاجم سيغوياك فلم يجد إليه مطعناً ، ولكنه وجَّه المعركة على طريقته . فاستطاع أن يجرح خصمه جرحاً خفيفاً ، وبعد قليل اضطر إلى الدفاع عن نفسه ، ثم ضايقه البارون وداوره حتى أرهقه ، وبدأ يلهث تعباً ، وتراجع أمام خصمه ، وظهرت على فيدالنك أمارات الجزع وساءل نفسه :

– لِمَ لا يستعمل الدوق الضربة التي علّمها له الأستاذ جيرولامو النابولي ، ويجهلها هذا الغاسكوني ؟



وكأن الدوق قرأ ما يدور في ذهنه ، فعمد إلى هذه الضربة ، لكن سيغوياك تصدى لها وعاجله بطعنة مستقيمة اخترقت عضده ، فأفلت السيف من يد الدوق ، وتوقف سيغوياك فوراً ويده اليسرى على خصره ينتظر قرار خصمه الذي تناول سيفه بيده مرة ثانية ، ولكنه لم يقدر على الإمساك

به ، فأعلن هزيمته . هنالك حيّا سيغوياك والمركيز الدوق والفارس وتوجها عائدين إلى المدينة ..

الفصل الخامس

مؤامرات في الظلام



عاد الدوق إلى قصره ذليلاً يكاد يتمزق غيظاً لا ألماً ، ورجع سيغوياك والمركيز إلى الفندق ، ولم يذكرا لأحدٍ شيئاً عن المبارزة ، ولكنّ للجدران آذاناً وعيوناً ، فما إن طلع الصباح حتى علمت بواتييه كلها بأن دوق فالومبروز قد بارزه خصم مجهول وجرحه ، ثم عرف الناس من صاحب الفندق ما رواه له جاك خادم الدوق ، أن خصمه هو الكابتن فراكاس ، الاسم المستعار لأحد النبلاء الأصلاء .

وتداول أهل بواتييه هذه الحادثة ، حتى إن الكابتن فراكاس حينما ظهر على المسرح صفقوا له طويلاً قبل أن يفتح فمه بكلمة ، دليلاً على إعجابهم به .

ولا تسل عن فرحة مدير الفرقة الذي أشرق وجهه كالقمر وهو يعدُّ النقود . واندفع الجميع إلى المسرح ليروا الكابتن فراكاس الممثل النبيل الذي لا تخيفه الهراوات ولا السيوف ، ولا يخشى مبارزة الدوق الذي تهابه الأبطال .

ولم يكن بلازيوس مبتهجاً بما يحدث لأنه يخاف انتقام فالومبروز ويتوقع أن يثأر لنفسه بالإساءة إلى الفرقة ، وكان ما توقعه ..

فذات مساء ، رجعت إيزابيل إلى غرفتها بعد انتهاء المسرحية لتجد على الطاولة صندوقاً بديع الصنع وقد وضعت تحته بطاقة كتب عليها بيد ثقيلة الحركة :

– إلى إيزابيل .

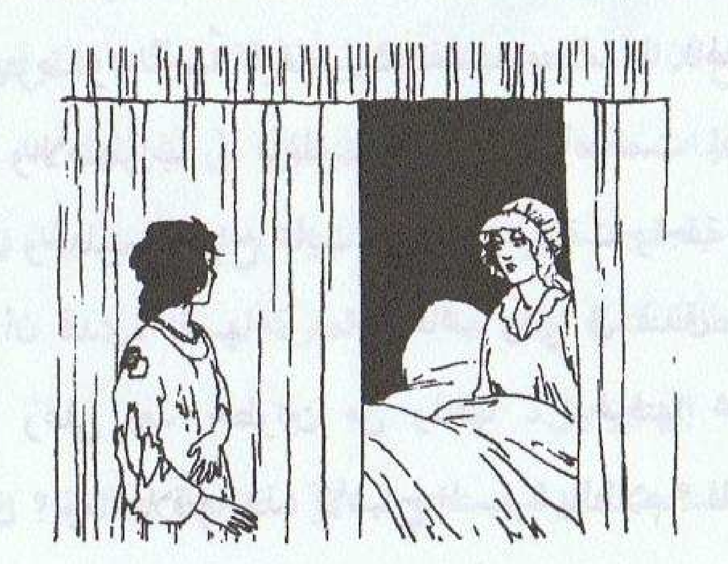
استاءت إيزابيل حتى احمرّ خداها ونادت صاحب الفندق ، وطلبت منه أن يرد هذا الصندوق إلى مرسله ، حتى

قبل أن تفتحه لترى ما فيه . فنظر إلى هذه الممثلة الشابة نظرة إكبار كأنها دوقة رفيعة المقام ، وحمل الصندوق ومضى يحييها تحية تليق بملكة .

وفتحت إيزابيل النافذة لتملأ رئتيها من هواء الليل ، وكان الطريق خالياً من المارة ، فأرهفت سمعها المتعود على التقاط أخفى الأصوات ، فتناهى إليها همس يقول : (لم تَنَمْ بعد) .

فانحنت من النافذة لترى في الظلام بعض الأشباح تختفي ، كأنهم يترصدون أحداً ، فحسبت نفسها متوهمة لما نالها من التعب والاضطراب ، فأغلقت النافذة ثم أحكمت إغلاق الباب ، وجعلت المصباح بجانب سريرها واستلقت واجفة وهي تحاول أن تهدىء نفسها ، فماذا تخاف وهي في فندق عامر بالناس وعلى بعد خطوتين من رفاقها ، وغرفتها محكمة الاغلاق ؟ وما علاقتها بهذه الأشباح المتسترة بالظلام ؟ فلعلهم سرّاق ليل يتربصون بأحد المارة .

هذا كلام منطقي ولكنه لم ينف القلق عنها والخوف ، وخشيت أن تلجأ إلى إحدى زميلاتها فتُتهم بالجبن ، فارتمت على سريرها وجعلت تنظر إلى نافذة صغيرة في الحائط أمامها مثبتة عليها قضبان حديدية . وفجأة خيِّل إليها أنها ترى عينين تلمعان وراءها ، ثم تدلى شعر أسود طويل وتبعه جسم انزلق على طول الحائط ، ورأت فتاة صغيرة عمرها بين الثامنة والعاشرة تتعلق بقضبان الحديد وتمد جسمها إلى الأرض وتسقط بهدوء القطة .



وتجمدت إيزابيل من الرعب حتى ظنتها الفتاة نائمة ، فاقتربت من السرير لتتأكد من ذلك ، فجلست إيزابيل لترى الخوف والمفاجأة مرتسمين على وجه الفتاة ، وهي تلمس العقد على عنقها ، وهمست :

– سيدة العقد ! سيدة العقد !

وعرفت إيزابيل الفتاة الصغيرة التي كانت بصحبة قاطع الطريق ، وحاولت أن تصرخ طالبة النجدة ، ولكن الفتاة وضعت يدها على فمها وقالت :

– لا تصرخي ، فلا بأس عليك ، لأن شيكيتا لن تقطع أبداً عنق السيدة التي وهبَتْها العقد .

وتمتمت إيزابيل بعد أن استعادت هدوءها :

– ماذا تفعلين هنا أيتها الشقية ؟

– جئت أفتح الترباس الذي تغلقين به الباب ، وقد اختاروني لأني صغيرة أتسرب كالماء من بين الشقوق .

– ولماذا تفتحين الترباس ؟

فقالت شيكيتا ببساطة :

– لكي يدخل الرجال غرفتك ويخطفوك .

فصاحت إيزابيل وقد شبكت أصابعها :

– آه يارب .. لقد ضعت !

فقالت شيكيتا :

– لا .. لا تخافي لن أفتح الباب لهم .

– وإذا صرخت ؟

فقالت شيكيتا وكأنها فنانة تشرح أصول صنعتها :

– إذا دخلوا فسوف يلفون جسمك بملاءة ولن يسمع أحد صراخك ، وقد اتفقوا مع الخادم على أن يفتح لهم الباب الخلفي .

فسألتها إيزابيل وقد أدركت الخطر المحيق بها :

– ومن وراء هذا العمل المرذول ؟

– إنه السيد الذي أعطى مالاً وفيراً .

والتمعت عيناها بشراهة ثم قالت :

– ولكن هذا سواء عندي .. سأقول لهم إنك لست وحدك .. وسوف ينصرفون .. آه ما أجملك ! إني أحبك كما أحب أوغسطين تقريباً .

ورأت على الطاولة الموس الذي أهدي إلى إيزابيل فقالت :

– آه .. هذا موس أبي ، احتفظي به إنه نصل قاطع ، أخفيه بين ثيابك ، فإذا هاجمك أحدهم فشقّي بطنه هكذا ..

وأمسكت شيكيتا الموس وشرحت لها استعماله بحركات خبيرة ، وأحست إيزابيل كأنها تعيش كابوساً ثقيلاً وهي ترى لصة نصف مجنونة تلقي عليها دروساً في استعمال الموس ..

وتابعت شيكيتا قائلة :

– اقبضي على الموس بقوة ، ولوّحي به أمام وجهك ، فلا يجرؤ أحد على الاقتراب منك .. يجب أن أذهب الآن .. تذكري ما قلته لك .. الوداع .

ثم ألصقت كرسياً بالحائط وصعدت فوقه ، وأمسكت بقضبان النافذة وجذبت جسمها إلى أعلى واختفت بين القضبان كما دخلت .

وظلت إيزابيل ساهرة تنتظر طلوع الصباح ، وحين رأى رفاقها وجهها الشاحب والزرقة التي تحيط بأجفانها ، روت لهم مغامرة الليلة الماضية ، فاهتاج سيغوياك وهدد بأن يهدم القصر فوق رأس فالومبروز ، مدبّر هذه المؤامرة .

وقال بلازيوس :

– أرى أن نطوي ديكور مسرحنا وننجو بأنفسنا في بحر باريس ، فالأمور سائرة إلى الأسوأ .

ووافقه الممثلون على رأيه ، وغادروا بواتييه منذ صباح الغد ، وكانت رحلتهم موفقة ، فدخلوا باريس مرتاحين ، وتوقفت عربتهم في شارع (دوفين) أمام أحد الفنادق الضخمة .

واستقرت الفرقة في هذا الفندق الضخم لأن عائداتها من التمثيل تسمح لها بذلك ، ولم تعد فرقة بائسة تنتقل في الأرياف باحثة عن لقمة عيش ، بل فرقة من الممثلين الموهوبين يعرضون فنهم على الذواقة ويعيشون حياة الرفاهية .

كان الممثلون جالسين أمام مائدة عامرة بالمآكل وهم يتمازحون ويضحكون ، على حين ظلّ سيغوياك ساكتاً يتأمل ما حوله .

إن باريس الصاخبة بعرباتها السريعة وشوارعها الواسعة وأبنيتها المرتفعة قد أذهلته ، وهو الذي ألف حياة الهدوء والعزلة في قصره المتداعي ، فكان يرقب كل ما حوله من وراء غلالة من ضباب .

ووقع بصره على رجل طويل القامة عابس القسمات وقف بجانب المدفأة ملتفاً بعباءته وقد أدار للحاضرين ظهره .

وساءل سيغوياك نفسه :

– أين رأيت هذا الرجل ؟ فهو ليس تاجراً ولا مزارعاً ولا جندياً ، فأين رأيته ؟

في هذه اللحظة نهضت إيزابيل عن المائدة مع بقية الممثلين وقالت :

– عزيزي البارون ، هل تتفضل بمرافقتنا إلى غرفتنا ؟

فقال وهو يمد لها ذراعه :

– طبعاً .. وسوف أتأكد أن غرفتك محكمة الإغلاق .

فأجابته إيزابيل بمرح :

– لا تخف .. إن قفل الباب متين ، والترباس طوله نصف ذراع ، والنافذة مغطاة بالقضبان الحديدية ، إن غرفتي تصلح سجناً لإحدى أميرات الحكايات الخرافية ، فلا يدخلها التنين .

ورافقها إلى غرفتها وسمع حركة المفتاح والترباس وتأكد من سلامتها . ولكنه رأى شخصاً يتسلل بجانبه ويمضي إلى غرفته ، فعرف فيه ذلك الرجل الواقف أمام المدفأة . وسمعه يغلق باب غرفته البعيدة عن غرفة إيزابيل .

جلس سيغوياك في غرفته فكتب رسالة إلى بيير كما وعده أن يفعل حين يصل إلى باريس ، ثم أغلقها ووضعها في محفظته ليرسلها في البريد إلى منطقة غاسكونيا .

أصغى سيغوياك إلى الضجة الهادرة من شوارع باريس التي لاتنام ، واستطاع أن يميز صوتاً في الممر كأنه وقع أقدام مكتومة ، ففتح بابه قليلاً وأطفأ النور ، فرأى رجلاً آخر يتسلل وراء صاحبه ويمضيان إلى أقصى الممر ، وبعد قليل تبعهما ثالث وكان مسلحاً مثلهما ، ولكن سيفه الطويل يظهر تحت عباءته .

فأثار انتباهه هذا الحذر الشديد ، وكذلك الرقم أربعة الذي يذكره بالكمين الذي نصب له في (بواتييه) .

والتمعت في ذهنه فجأة صورة الرجل الذي رآه في قاعة الفندق أمام المدفأة ، إنه ذلك الذي هاجمه بعد خروجه من المسرح ، فطرحه أرضاً بضربة من سيف الكابتن فراكاس ، وتأكد له أن الدوق لم تهدأ ثائرته ، وأنه يوجّه انتقامه إلى إيزابيل وسيغوياك معاً .

وعزم البارون على السهر ، فأشعل كل ما لديه من شموع ، وفتح الباب بحيث يسقط الضوء على باب إيزابيل المواجه له ، ثم جلس وقد استل سيفه وخنجره وجعلهما في متناول يده ، وانتظر طويلاً دون أن يرى أحداً .

ودقت ساعة الكنيسة المجاورة دقتين حين سمع حفيف ثياب ، وانعكس على الحائط ظل رجل متردد الخطوات ، وإذا هو ميرندول أحد رجال الدوق فالومبروز ، ووقف سيغوياك على باب غرفته وسيفه بيده متأهباً للقتال ، مرفوع الرأس ملتهب النظرات ، حتى إن ميرندول مرَّ مطأطئ الرأس ، وتبعه الرجال الثلاثة وقد أدهشهم هذا النور الذي يسطع على وجه البارون ، فتدافعوا مذعورين حتى إن أحدهم أسقط كمّاشة ولم يجرؤ على التقاطها ، فحيَّاهم البارون مستهزئاً بهم . وبعد قليل سمع وقع حوافر الخيل في باحة الفندق . لقد هرب الخبثاء بعد أن فشلت خطتهم .

قال هيرود لسيغوياك وهما على مائدة الإفطار :

– نعم إنها فرصة سانحة ، ولكن اطلب من سكابان أن يظلّ في الفندق ويرقب القادمين إليه ، وألا يغفل عن إيزابيل طرفة عين لأن انتقام فالومبروز يحلق فوقنا .

وحكى سيغوياك لأصحابه أحداث الليلة الماضية ، فقال الجبار :

– لا أظنهم يجرؤون على شيء في وضح النهار ، وسوف يحرسها سكابان وبلازيوس ، أما أنت فقد يخشى عليك من هجوم أحدهم في الطريق ، لذلك سأحمل سيفي معي فقد يكون ذا فائدة لك .

وتجوَّل الجبار وسيغوياك في باريس وأطلعه على معالمها التاريخية وقصورها وحدائقها ، وجلسا على ضفة نهر السين يغسلان أقدامهما في مائه . ثم قال الجبار :

– سنذهب الآن إلى الضفة الثانية من النهر ، لأنه يمر عبر باريس ويشطرها إلى مدينتين .

وتجوّل الرجلان في الطرقات المزدحمة بالناس ، فأحسّ سيغوياك بأنه بعيد عن عزلته في قصر البؤس بين الحقول الجرداء ، فكان يصغي إلى نداءات الباعة وخوار الثيران يسوقها الفلاحون في الشوارع الفسيحة ، ويتأمل فرق الجنود تمشي على قرع الطبول ، ويتلفت كالذاهل عند كل منعطف طريق .

وصل سيغوياك وصاحبه إلى الجسر التاسع الذي يصل ضفتي السين حين سمعا ضجة هائلة وأصواتاً تهتف " اقتله .. اقتله " ، واحتشد الناس حول مصدر الصوت ، فإذا هم جماعة من الشطار يتظاهرون بالقتال لكي يلتف حولهم الناس ويسهل على رفاقهم من اللصوص سرقة أكياس نقودهم .

ولكن سيغوياك لم يقترب من المتبارزين ، ونصحه الجبار أن يظلّ بعيداً عن زحمة الناس . وفجأة توقف القتال وتصافح المتبارزون وضحك المتفرجون ، وهم لا يدرون أن بعضهم

وقف وجيبه عامر بالمال ، ثم غادر الزّحمة وهو مفلس جرّده الشطار من كيس نقوده .

وظن سيغوياك أنه لمح ذلك الرجل الذي رآه في قاعة الفندق أمام المدفأة ، فقال له الجبار :

– أظن هذا الشجار المصطنع يستهدفك ، ولا ريب أنهم يراقبوننا وينتظرون الفرصة للهجوم علينا ، فإذا اقتربت من الزحمة طعنك أحدهم دون أن يكون لديك الوقت لكي تستل سيفك .. ثم يقال إنها مشاجرة جماعية مجهولة الفاعل .

قال سيغوياك :

– هذه حقارة أربأ بنفسي عنها ، ولم أكن أظن أن فالومبروز يتدنى إلى مستواها ، وإذا شاء بارزته مرة ثانية .

فقال الجبار :

– هذا أكيد .. ولكن الدوق موقن أن المبارزة وخيمة العاقبة عليه .



وتمشى الرجلان وهما يتحدثان عن هذه القضية وسواها ،
حينما اندفعت عربة يجرها حصانان إلى سيغوياك ، فالتصق
بالحائط وقد أنقذته نحافة جسمه ، ثم مرقت العربة كالسهم .

فصاح الجبار :

– هل أصبت يا كابتن ؟ لقد رآك السائق فحصرك في
الحائط على الرغم من أن الطريق عريضة ، وهل رأيت الشعار
المرسوم عليها ؟ وذلك الرجل الجالس في داخلها وذراعه
مربوطة إلى صدره ؟ .

– لا .. كنت مشغولاً بنفسي عن مراقبته ..

فقطب الجبار حاجبيه الكثيفين وقال :

– لاريب أنها عربة فالومبروز الذي يسعده أن يدوس فوق
جثة غريمه ، إنه يسعى إلى قتلك .

فقال سيغوياك :

– لا أظن ذلك .. لقد تركناه البارحة في بواتييه على أسوأ
حال .. فهل يسبقنا إلى باريس ؟

– إن لديه عربات سريعة ، ولا يمنعه جرحه من السفر ،
فاحذر يا كابتن .. إنه يريد قتلك .. ومن يدافع عن إيزابيل
بعدك ؟ إننا ممثلون بسطاء لا طاقة لنا بمواجهة دوق فالومبروز !

فوافقه سيغوياك على قوله ، ووعده بأن يضاعف حذره
وحيطته . ومشى الرجلان حتى قصر اللوفر ، فإذا الفرسان
يجرون ويثيرون الغبار ، يفسحون الطريق للعربة الملكية . ولمح
سيغوياك وجه الملك شاحباً كئيباً وشعره أسود طويل .

ووقف البارون الشاب ذاهلاً لرؤيته ، وكان يتخيله مخلوقاً خارقاً للطبيعة ، يشعّ بالعظمة والبهاء ، فلم يجد سوى وجه حزين بائس .

وتركه الجبار غارقاً في تأملاته حتى وصلا الفندق .

الفصل السادس

المبارزة



هدد الدوق خادمه ميرونديل بأن يعيده إلى السجن الذي انتزعه منه إذا لم يقض على سيغوياك ، فقرر هذا الخادم الاستعانة بأحد أصدقائه الذي لا يتورع عن عمل إذا كان مدفوع الأجر .

وكان يدعى (جاكمن لامبورد) وهو رجل طويل القامة نحيل الساقين ، طويل الذراعين بشع المظهر ، وزاد في قبحه أنفه الكبير الذي يتوسط وجهه ، ولا يجرؤ أحد على السخرية من هذا الأنف لأن صاحبه شرس الطباع سريع إلى الشر ، ويسكن سقيفة مملوءة بكافة أنواع الأسلحة كأنها حانوت بائع خردة ،

ولكنها لامعةٌ ماضيةٌ ، تتناقض مع السقيفة التي يعلوها الغبار ، ولا غرابة في ذلك إذ أن صاحبها من القتلة .

بحث ميروندبل عن لامبورد ، فوجده في سقيفته وشخيره يرتفع من حوله كأنه أُرغنُ إحدى الكنائس ، فأيقظه ، فنهض لامبورد وهو يفرك جفونه قائلاً :

– ليحمل الشيطان ذلك الحيوان الذي انتزعني من أحلامي اللذيذة ، فقد عَرضتْ عليَّ إحدى الأميرات الزواج على أن تمنحني تاجها .

فقال له ميرونديل :

– اصغ إليَّ فإني أحمل لك شيئاً أفضل من تاج الأميرة .

– ولكن لا حاجة لي بالمال .

فقال ميرونديل :

– البس ثيابك ولنخرج لأن الهواء النقي مفيد لمن عششت في رأسه الأحلام ، وسوف ترى أنها صفقة تستأهل الانتباه إليها .

ومشى الرجلان حتى وصلا رصيف نهر السين ، وعبث الهواء النقي برأس لامبورد وردَّ إليه شيئاً من وعيه ، وتلفت القاتلان المرتزقان حولهما ليتأكدا من ابتعادهما عن المارة ، ثم تكلما طويلاً بصوت هامس .



وحين غادر ميرونديل الرصيف كان في جيب لامبورد حفنة من النقود الذهبية يعبث بها غير خائف ، لأنه مشهور ببطشه في منطقة الجسر التاسع .

بعد أن اجتاز لامبورد الجسر التاسع إلى الضفة الثانية من السين ، وقف حائراً بين أمرين : هل ينفذ ما طلبه منه ميرونديل أم يقوم بجولة في المقاهي يلتقي أثناءها بأصحابه ؟

ولمح أحد التجار يمر بقربه مسرعاً ، فعرف أنه يحمل مالاً ، ولكنه تركه يمضي دون أن يتعرض له ، فجيبه عامر بالذهب .

دخل لامبورد أحد المقاهي وجلس إلى الطاولة ، وإذا به يلمح بالباب صديقه (مالاتريس) مرتدياً ثياباً سوداء بوجهه الكئيب الذي يميزه ندب غائر ، وكان أفضل مبارز في باريس بعده طبعاً ، وهو أنيق الملابس حسن الهندام ، فتوجه إلى طاولة لامبورد مباشرةً ، وجعلا يتبادلان الأحاديث فيما بينهما .

فجأة ارتفعت الأصوات في زاوية المقهى : إذ أن رجلين تراهنا على قضية ، وأكد أحدهما للآخر أنه لا يعتقد وجودها

إلا إذا رآها بعينيه . وأحاط بهما الحاضرون ، والتفت لامبورد ومالاتريس إليهم فجذب انتباههما رجل مربوع القامة حاد النظرات ، حول خصره حزام من الصوف الأحمر يتميز به الإسبان ، وقد أمسك خنجراً طويلاً وصاح بصاحبه :

— أنا جاهز ..



ثم نادى بلهجة خشنة :

– شيكيتا .. شيكيتا ..

فنهضت من النوم فتاة صغيرة كانت راقدة في زاوية معتمة من المكان ، وتقدمت إلى أوغسطين ، وهي تنظر إليه نظرات برّاقة وقالت :

– ماذا تريد يا معلمي ؟ إني طوع أمرك !

قالت هذه العبارة بلهجة (باسكية) يجهلها الفرنسيون ، فجرّها أوغسطين من يدها وألصقها بالباب ، وأمرها بالثبات ، وكانت هذه الفتاة معتادة على هذه الألعاب ، فوقفت غير خائفة أو مندهشة ، تنظر أمامها بصبر عجيب ، وابتعد أوغسطين إلى آخر المقهى ثم سدد سكينة ورماها ، فانغرست بسرعة فوق رأسها دون أن تمس شعرة منه وكأنه يريد أن يقيس طولها .

وحين انطلق النصل أمام الحاضرين طرفوا بأعينهم خائفين إلا شيكيتا فإنها لم تحرك رموشها . وصفق الحاضرون إعجاباً بمهارته ، فانتزع أوغسطين النصل وعاد إلى مكانه وسدد مرة

ثانية فغرسه بين خاصرة شيكيتا وذراعها ، ولو انحرف إصبعاً لأصاب قلبها . وصاح به الحاضرون يطلبون منه التوقف ، ولكنه استمر يقذف سكينه حول شيكيتا ليؤكد لهم أن القضية ليست محض مصادفة .

وحولت شيكيتا في الحاضرين نظراتها رداً على إعجابهم بثباتها ، ثم عادت إلى الزاوية التي خرجت منها فالتفت بمئزرها ونامت ، ودفع خاسر الرهان إلى أوغسطين خمسة دنانير فدسها في حزامه ثم رجع إلى مقعده .

فقال لامبورد لمالارتيس :

– أرأيت هذا الشيطان .. ما أبرعه في رمي النصل ! والله إنه لأفضل من مائة مبارز ، وسوف نحتاجه في المهمات الصعبة .

فقال مالارتيس :

– نعم إنه عمل نظيف بارع .

فأجابه لامبورد :

– لنرجع إلى شؤوننا ، إنني الآن مكلف بالقضاء على شخص يدعى الكابتن فراكاس ، وأستطيع إنجاز هذه المهمة وحدي ، ولكن ينبغي لي أن أخطف تلك الفتاة أيضاً ، وسوف يتصدى لنا جماعة من أصحابها ، فمن يستطيع أن يساعدنا في عمليتنا هذه ؟ ما رأيك بـ (بيكنتير) ؟

– ولكنك لا تستطيع الوصول إليه لأنه يقضي إجازته في سجن (مونغوكون) وفي قدميه سلسلة حديدية .

– لذلك لا أراه منذ مدة طويلة ، ما أعجب الحياة ! تكون جالساً مع صديق لك ، ثم يغيب عنك أياماً ، فإذا سئلت عنه قالوا قد شنق ، المهم .. ما رأيك بـ (كوربنوف) .

– إنه مشغول أيضاً فهو يجدّف في سفن الملك لمدة سنوات .. لكن لديك (بيغري) و (تريغول) و (رابيه) و (برغنيل) إنهم جاهزون !

فقال لامبورد :

– هذه أسماء لامعة ، وستكون أنت معهم حين الحاجة ، ولكن أين تنام هذا المساء ؟ .

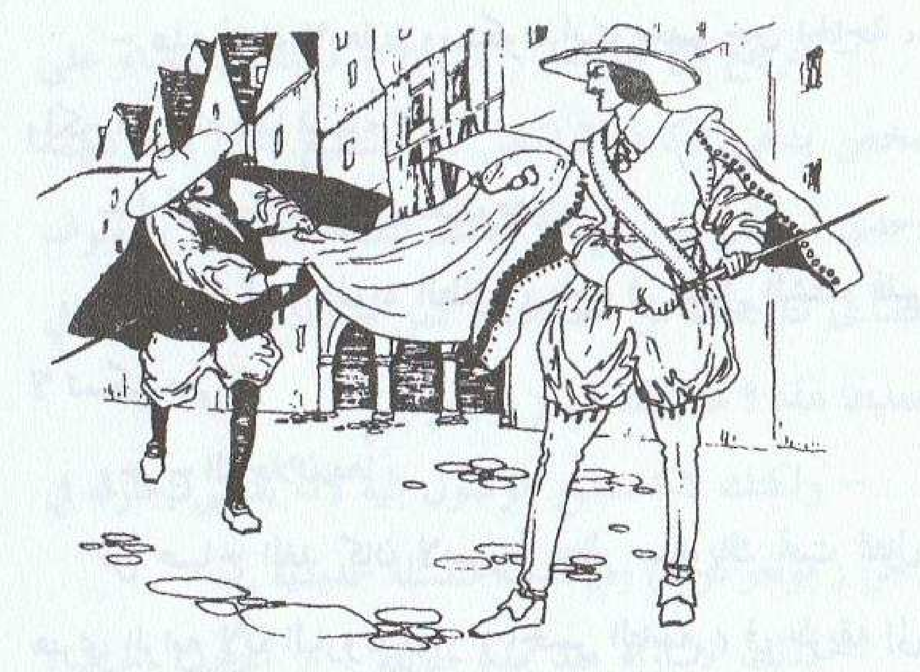
– لم أنصب خيمتي في مكان معين .

– إن فندق (الهواء الطلق) بارد في فصل الشتاء فلم لا تسكن معي ؟

وخرج الرجلان معاً .

من صباح الغد كان لامبورد ينتظر سيغوياك تحت تمثال هنري الرابع لأن البارون يجتاز (الجسر التاسع) في طريقه إلى الفندق ، وكان الجو بارداً والشمس قد غربت وراء (الجسر الأحمر) بعيداً عن حدائق (التويلري) ، وتناقص عدد المارة .

وظهر سيغوياك أخيراً ، ولم يلمح لامبورد الذي اندفع إليه وجذب عباءته فتمزقت أشرطتها ، فالتفت سيغوياك إليه ، واستل سيفه بلمح البصر وقد حسبه أحد السرّاق التافهين ، واستعد لتأديبه ، فتأهب له لامبورد وهو يقول في سره : (سوف نلهو قليلاً) .



وتصادم النصلان ، وجرب لامبورد إحدى ضرباته السريعة ، فصدها سيغوياك ، فقال لنفسه : (استعراض حسن ، إن للفتى مقدرة واضحة) .

ثم صاح به :

– إليك هذه !

ورسم سيفه في الهواء دائرة مكتملة ، ولكن سيغوياك صدها واشتبك السيفان بضربات سريعة ومحكمة تدل على مهارة المتبارزين ودهائهما .

فقال لامبورد وهو لا يخفي إعجابه :

– أتدري يا سيدي أن طريقتك رائعة ؟

فأجابه سيغوياك وهو يسدد إليه طعنة مباشرة :

– في خدمتك !

فردها لامبورد بمقبض سيفه وقال :

– كان ينبغي أن أكون ميتاً الآن ، لأن ضربتك هذه لا يصدها إلا أستاذ مثلي ، ويؤسفني أن أقول لك إني استهنت بك ، وبارزتك مبارزة المبتدئين ، ولكن هل تعرف من أستاذي ؟

– فمن يكون ؟

– إنه جيرولامو الإيطالي .. وكان بي فخوراً ، وأنت من أستاذك ؟ .

فقال سيغوياك :

– أستاذي جندي بسيط يدعى بيير ، خذ هذه فإنها من طعناته المفضلة .

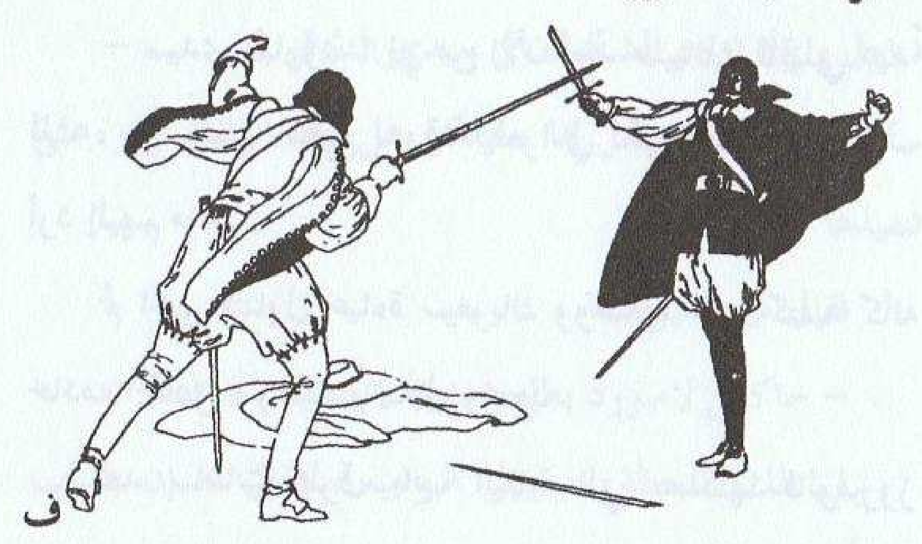
واندفع إلى خصمه فتراجع لامبورد خطوة إلى الوراء ، وهو يقول :

– كدت تصيبني ، وقد انزلق السيف تحت إبطي ، لو كان الوقت نهاراً لقتلتني ، ولكنك غير بارع في المبارزة الليلية ، سأحاول الآن أن أجرب إحدى طعناتي السرية ، وهي نتيجة دراساتي وخلاصة علمي ، وهي ضربة لا تخيب وقد قتلتْ من وُجِّهت إليه ، وإنها ميراثي الوحيد الذي أخلفه لك ، لأني لم أصادف رجلاً قادراً على إنجازها ، ولعلك قادر على ذلك أيها الشاب ، ولكن لتسترح قليلاً ، ما رأيك ؟

وخفض جاكمن لامبورد طرف سيفه ، وفعل سيغوياك مثله ، واستأنفا المبارزة بعد دقائق .

كان سيغوياك خبيراً بالمبارزة يعرف أسرارها وحيلها ، وتوقع أن يسدد إليه خصمه ضربة قاتلة فاستعد لها .

ولم يفاجأ حين رأى لامبورد يخطو خطوة واسعة إلى الأمام كأنه يسقط على وجهه ويرمي بكل ثقله وراء نصله ، ولمح سيغوياك سيفه يبرق أمام عينيه ، فاعترضه بضربة نصف دائرية كسرت سيف لامبورد .



صاح وهو يحرك نصف سيفه :

– إذا لم يكن نصفه الثاني في صدرك ، فأنت رجل عظيم .. بل بطل الأبطال ..

فقال سيغوياك :

– كلا ! لم يلمسني سيفك ، ولو شئت لدققت نصلي في صدرك ، وثبّتك في الحائط كأنك بومة ميتة ، ولكن تأبى عليّ شهامتي .

– سيدي البارون ! إني من الآن أحد صبيانك فاقبلني عبداً لك ، بل كلبك المطيع ، وقد دفعوا لي لكي أقتلك ، وسوف أرد إليهم مالهم .

ثم انحنى فتناول عباءة سيغوياك ووضعها على كتفيه كأنه خادمه الخاص ، وحيّاه بإجلال وابتعد .

بعد ساعات طرق باب البناية التي يسكنها فالومبروز وطلب مقابلته ، وحاول البواب أن يطرده ، ولكنه زجره ، فخاف ودخل على الدوق فوجده يصرخ بميرونديل وقد احمرّ وجهه حنقاً :

– كيف لم تقتل سيغوياك إلى الآن ؟ وما فائدة أعواني إذا لم ينفذوا أمري ، سأرجعكم إلى السجن جميعاً .

فتأتأ ميروندليل :

– يا سيدي الدوق ، إن هذا الغاسكوني ليس فريسة سهلة ، ولكني كلفت أحد المحترفين بأن يتعرض له ويسرق عباءته ، ثم يشتبك معه ويقتله ، فيضيع دمه هدراً على يد سارق ، ولا توجه الشكوك إلى سيدي الدوق .

– خطتك لا بأس بها ، ولكن هل هذا الرجل قادر على تنفيذها ؟

فقال ميروندليل بثقة :

– جاكمن لامبورد بطل مسايفة لا يعرف الخوف .

في تلك اللحظة انتبه إلى البواب ، فقال له إن بالباب رجلاً يصرّ على مقابلته .

فقال الدوق :

– أدخله ، لنرى ماذا يريد ، والويل له إن كان طالب إحسان ، لأنه سيترك جلده عندي ..

وابتهج ميروندبل لرؤية لامبورد ، ولكن سرعان ما خاب ظنه إذ تقدم لامبورد بخطوات واسعة وانحنى أمام الدوق ثم مدّ إليه كيس النقود ، وهو يقول :

– إني أرد إليك مالك ، فأنا غير قادر على مبارزة سيغوياك .

فسأله الدوق :

– وهل أخافك ؟

فاستل لامبورد سيفه المكسور من قرابه وقال :

– كان قادراً على قتلي بضربة واحدة ، ولكنه لم يفعل ، وأنا مدين له بحياتي ، وحرام أن يقتل فارس لا أعرف له مثيلاً في المبارزة .

فصاح به الدوق :

– خذ هذه النقود واغرب عن وجهي .

– سأفعل ، وأشكرك يا سيدي الدوق على كرمك ، ولكني أقدم إليك نصيحة إذا تفضلت بالاستماع إليها .

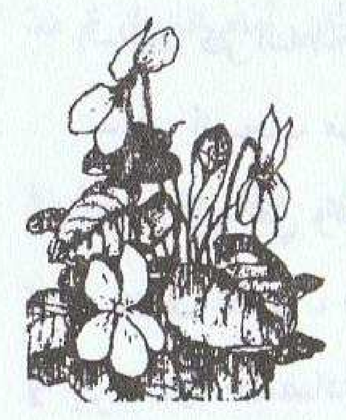
فقال الدوق هازئاً :

– لقد كثر الناصحون هذه الأيام .. هيا تكلم .

– إني أنسحب من خدمة سيدي الدوق ، ولكني أنصحه بأن يتوجه إلى أخي وشقيق روحي ، المدعو (مالارتيس) فقد كلفته بخطف الممثلة ، وسوف ينفذ الخطة بحذافيرها ، فهو رجل لا يترك شيئاً للمصادفة ، ولا يتورع عن شيء ، وإذا أراد سيدي استدعاءه فليرسل رجلاً من طرفه فيرسم إشارة بالطباشير على المدخل الغربي لفندق (رادي كورونيه) فيأتيه مالارتيس ويستمع إلى أوامره .

ما إن أنهى لامبورد خطابه حتى خرج من الغرفة بخطا ثابتة واسعة ، وهو راض عن حضوره أمام هذا الدوق الشهير .

الفصل السابع
الاختطاف



لقد عرفت المسرحية نجاحاً باهراً في باريس ، وأُعجب المتفرجون بجمال إيزابيل ولطف حركاتها ، ودُهشوا لإتقان الكابتن فراكاس دوره حتى حسبوه ضابطاً حقيقياً لا ممثلاً .

وقام الممثلون الآخرون بأدوارهم على أحسن وجه ، فذاعت شهرة الفرقة في باريس وضواحيها ، حتى قيل إن الملك أراد أن تمثل أمامه ، فكاد هيرود أن يطير من الفرحة ، وكثيراً ما كانت الشخصيات الراقية في المجتمع الباريسي تدعو الفرقة لتمثيل مسرحياتها الهزلية في قصورها لمناسبات عديدة .

لذلك لم يدهش هيرود حين جاءه ذات صباح إلى الفندق في شارع (دوفين) شخص حسن الهيئة يبدو عليه الوقار كأنه رئيس خدم أو مدير أملاك ، وطلب مقابلته على انفراد من طرف الكونت (بومروي) .

وأعجب هيرود بهذا الشيخ الوقور وجمال عبارته إذ قال له :

– أنت مدير هذه الفرقة التي ذاعت شهرتها في المدينة حتى وصلت إلى المزرعة التي يسكنها سيدي ؟



فقال هيرود بما أمكنه من إجلال :

– أنا هو يا سيدي .

إن سيدي الكونت يرغب في أن تعرضوا مسرحيتكم في قصره الذي لا يبعد سوى عدة فراسخ ترويحاً عن ضيوفه من علية القوم ، وهو لا يبالي بما يكلفه هذا العرض من مال .

فقال الجبار :

– سأفعل ما بوسعي لخدمة هذا الكونت الكريم ، وإن كان تصعب علينا مغادرة باريس في هذا الموسم .

فقال رئيس الخدم :

– ثلاثة أيام تكفي : يوم للذهاب ، ويوم للإياب ، ويوم لتقديم المسرحية . وقصر سيدي مجهز بمسرح تستطيعون استخدامه ، وهذه مائة دينار لمصاريفكم ، ومائة أخرى تنالونها بعد العرض ، بالإضافة إلى الهدايا التي يجود بها سيدي على الممثلين .

فرمى هيرود كيس النقود في جيبه علامة الرضا ، فقال رئيس الخدم :

– أستطيع أن أعلم سيدي بموافقتكم إذاً ؟

– إني في خدمة سيدي الكونت ، أنا والفرقة كلها ، وأرجو أن تبين لي يوم العرض ومكانه والمسرحية التي يرغب سيدي الكونت في رؤيتها لكي نأتي بالديكور والملابس المناسبة لها .

– اليوم هو الخميس ولكم اختيار المسرحية .

فقال هيرود :

– اقترح مسرحية (الوهم المضحك) من تأليف كاتب نورمندي شاب ، وهي أشهر مسرحية هذه الأيام .

– حسناً كما تشاء ، على شرط أن يكون فيها دور المتبجح .

ودلّ رئيس الخدم هيرود على الطريق إلى قصر الكونت ، ووعده أن يرسل إليه خادماً ليصحبهم لئلا يضلوا ، ثم حياه وانصرف .

لو أن هيرود تابع بنظره هذا الشيخ للاحظ أن شخصه يكبر كلما ابتعد ، وأن حدبته تستقيم ، وأن رجفة يده قد فارقته .

صباح الأربعاء ، حينما كان صبيان الفندق يحمّلون ديكور المسرح على العربة ، تقدم إليهم خادم طويل القامة نظيف الثياب يمتطي بغلاً ليدلهم على الطريق إلى قصر الكونت .

بعد أقل من نصف ساعة اجتازوا باب (سانت أنطوان) ، ثم وصلوا إلى الريف باتجاه مدينة (فانسن) التي لاحت مبانيها وراء غلالة من ضباب الفجر .

كانت الطرقات مهجورة ، وقد تجتازها بعض الأرانب والغزلان الشاردة . وابتسم سيغوياك لرؤية هذه المناظر المختلفة عن المدينة بطرقاتها الموحلة ومداخنها التي تنفث السواد ، واقترح على إيزابيل أن تتمشى قليلاً ، وتروّح عن نفسها ، فاستندت إلى ذراعه وهبطت إلى الأرض ، ومضت إلى جانب الطريق ، فأطلقت صرخة دهشة كأنها طفل صغير ،

والتفت إليها سيغوياك ورآها تقطف بنفسجة وتقدمها إليه وهي تبتسم ابتسامة مشرقة وقالت :

– إنها تحية الربيع للناس ، وفأل خير علينا .



فتناولها البارون الشاب ، ولم يكد يحييها حتى جذب انتباههما متسولان ، كان الأول شيخاً أعمى يصحبه صبي صغير جالس على جانب الطريق يستدر عطف المارة ، ويردد الشيخ دعاءه للمحسنين ، ويعدهم بالجنة مقابل إحسانهم .

ولكن دعاءه الرتيب يتردد في سمع إيزابيل وسيغوياك كأنه طنين مزعج ، ولكنهما حين اقتربا منه زاد صوته إلحاحاً وحرك بيده المرتجفة قصعة فيها بعض القروش .

كان على رأسه خرقة ممزقة ، وعلى ظهره المحني بطانية ثقيلة من الصوف البنيّ تصلح لحصان لا لإنسان ، وقد انقلب حملاقا عينيه وظهر بياضهما ، وتدلت من وجهه البشع لحية واسعة بيضاء حتى وسطه ، ولم يكن يظهر من تحت البطانية سوى يده المرتجفة بالقصعة . وأما الطفل الواقف بجانبه فقد كان نحيلاً ، قوي البنية ، حاد النظرات قد انسدلت على وجهه خصلات شعره الأسود ، وغطت جسمه أسمال بالية ، فعطفت إيزابيل على هذين النقيضين الطفولة والشيخوخة اللذين جمعهما البؤس والفاقة ، وبحثت في جيبها عن قطعة نقد تعطيها للشحاذ ، ولكنها لم تجد ، فالتفتت إلى سيغوياك ورجته أن يعطيه شيئاً .

لم يكن البارون مرتاحاً لهيئة هذا الشحاذ ، ولكنه تقدم إليه ووضع قطعة نقدية في قصعته ، وبدلاً من أن يشكره فإنه وثب على قدميه ، ولوح بالبطانية التي رماها على سيغوياك كما يرمي الصياد شبكته في النهر ، واستقرت البطانية الثقيلة على رأسه ثم انسدلت على جسمه لأن أطرافها مملوءة بقطع الرصاص فمنعته من الرؤية والتنفس ، واستخدام يديه ورجليه .

وتسمرت إيزابيل من الرعب ، وحاولت أن تصرخ ، ولكن حملها الشحاذ الشيخ الذي انقلب إلى شاب حديد البصر ، وساعده الفتى على الإمساك بقدميها ، وانطلقا بها بعيداً عن الطريق حتى وصلا كوخاً ينتظرهما بجانبه فارس يمتطي جواداً أصيلاً وقد وضع على وجهه قناعاً .

ووراء الأشجار اختبأ فارسان مقنعان لنجدة الفارس الأول إذا اقتضى الأمر .

رماها الفارس الأول أمامه ولفّ حولها حزاماً جلدياً ، وأدار طرفه الآخر على خصره ، ثم همز خاصرتي حصانه ، فانطلق يجري .

أثناء ذلك كان سيغوياك يحاول التخلص من البطانية الثقيلة وقد اشتد غضبه ، فاستل خنجره ومزقها ورماها عنه ، وتلفت حوله فرأى الفرسان متجهين نحو غابة قريبة ، ولم يجد للشحاذ الأعمى والصبي أثراً .

لم يضيع البارون الوقت فانطلق يجري بأقصى سرعة تستطيعها قدماه القويتان ، وكان معروفاً في المنطقة كلها بسرعة عدوه منذ طفولته .

لاحظ البارون أن المسافة تتناقص بينهم وبينه ، فأطلق عليه أحدهم رصاصة فأخطأته ، وكان سيغوياك يجري يمنة ويسرة لئلا تُصَوّب الرصاصة نحوه بدقة ، وحاول الفارس الذي يحمل إيزابيل أن يسبق صاحبيه ويدعهما يتوليان أمر سيغوياك ، فكانت إيزابيل تلطمه بيديها وتسعى للفكاك من

الحزام ، ولم ينجح في السيطرة على جواده . واقترب سيغوياك منهم أكثر فأكثر لأن الأرض لم تكن صالحة لجري الخيول ، واستل سيفه دون أن يتوقف ، فشكّ بطرفه مؤخرة الحصانين . وحدث ما أراده إذ انطلق الفارسان حتى غابا عن أنظاره .

كان يلهث والعرق يغسل وجهه ، وهو يظن أن قلبه سينفجر بين ضلوعه ، ولكنه لحق بالفارس الذي يحمل إيزابيل .

وصرخت إيزابيل : (النجدة يا سيغوياك) ، فصاح البارون : (لبيك يا إيزابيل) وصوته يتقطع من اللهاث . وأمسك بيده اليسرى الحزام الذي يربط إيزابيل إلى الرَّجُل وجذبه ليرميه ، لكنه أحكم قدميه على خاصرتي حصانه وجذب سكيناً فقطع به الحزام الذي تمسَّك به سيغوياك ، ثم غرس مهمازيه في بطن حصانه ، فانطلق ناجياً به .

تعثر سيغوياك ثم سقط على ظهره ، وحين نهض كان الفارس قد ابتعد واستحال عليه اللحاق به .

توقف سيغوياك وهو يكاد يُغمى عليه من التعب ، ولحق هيرود وسكابان به فقال هيرود :

– إن فالومبروز وراء هذه الهجمة ، فهل عرف موعد سفرنا ، أم أنها حكاية مختلقة لجذبنا خارج المدينة ؟ وإذن فإن ذلك الوغد الذي مثّل دور رئيس الخدم أبرع ممثل رأيته في حياتي ، ولكن هيا بنا إلى هذه الغابة ، ولنبحث جميعاً فيها لعلهم لم يبتعدوا كثيراً .

والواقع أنهم ما كادوا ينفذون في أطراف الغابة حتى رأوا عربة يجرها أربعة خيول ويحرسها الفارسان اللذان شكّ سيغوياك حصانهما .

يستحيل عليهم أن يلحقوا جرياً على أقدامهم تلك العربة السريعة ، فاكتفوا بأن عرفوا وجهتها لعلهم يستطيعون إنقاذ إيزابيل من أيدي الخاطفين .

وعادوا أدراجهم فوجدوا أعضاء الفرقة ينتظرونهم والحيرة بادية على وجوههم . وأما الخادم الذي صحبهم ليدلهم على

قصر بومروي فقد اختفى ، ولعل القصر كله أكذوبة اخترعها الخاطفون .

ولكي يقطع هيرود الشك باليقين سأل عجوزاً صادفها عن قصر بومروي ، فقالت له إنها لم تسمع به ، وهي شحاذة تجوب المنطقة طولاً وعرضاً منذ طفولتها ، فأيقن الجميع أنها حيلة دبرها فالومبروز لكي يختطف إيزابيل ، لأنه لا يقدم على مثل هذه الجريمة إلا من كان يملك المال والرجال .

ورجعت عربة الممثلين إلى باريس إلا سيغوياك وهيرود وسكابان فقد لبثوا في مكانهم ، وقد عزموا على استخدام خيول من قرية مجاورة كي ينطلقوا على آثار الخاطفين .

أما العربة التي وجدت إيزابيل فيها ، فكانت منطلقة بأقصى سرعتها ولا تتوقف إلا بضع دقائق لاستبدال الخيل في مراحل محددة من قبل ، ولم تكن تعرف وجهتها لأن الستائر تمنعها من رؤية ما حولها .

ولبثت هادئة لا تصرخ ولا تبكي ، إذ علمت أن أحداً لن ينجدها ، فوفرت قوها لما ينتظرها .

وكان جالساً قبالتها الفارس الذي خطفها وهو لا يرفع بصره عنها ، وتعبت في سؤاله عن سبب خطفها ، فكان جوابه الوحيد : (سر المهنة) .

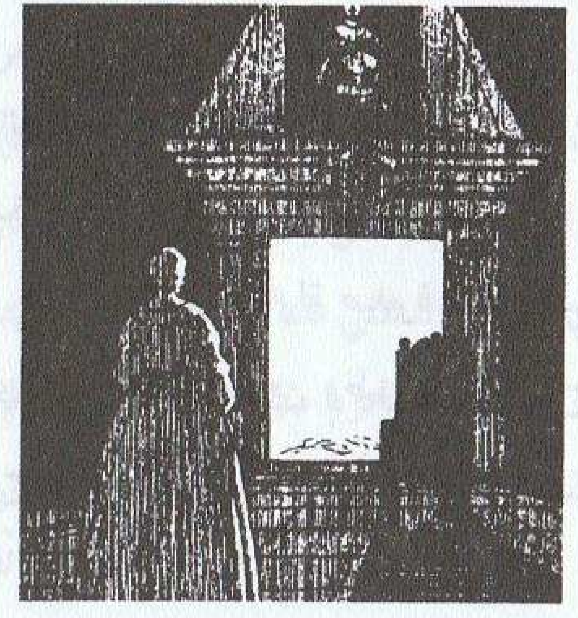
فانتظرت توقف العربة والخوف يسكن قلبها ، ولم تشك في أن خاطفها فالومبروز ، وقالت لنفسها :

– لئن جرؤ هذا الدوق على لمسي ، فإن بين ثيابي سكين شيكيتا . فهدأت خواطرها .

توقفت العربة أخيراً ، وساعدها الفارس المقنَّع على النــزول ، فوجدت نفسها في ساحة واسعة تحيط بها أبنية مغلقة النوافذ ، تقطعها ممرات محاطة بالنباتات ، ويبدو على القصر أنه خالٍ من السكان ولكنه غير مهجور .

وسلَّمها الفارس المقنع إلى خادم في ملابس رمادية ، فمشى بها إلى درج واسع يؤدي إلى شقة فسيحة فاخرة الأثاث ،

ستائرها من الحرير والمخمل ، وقد فُرشت أرضيتها بأنواع السجاجيد الشرقية ، والنار تلتهب في المدفأة الأثرية ، مما يدل على أن حضور الممثلة الشابة كان متوقعاً .



ويعلو هذه المدفأة لوحة كبيرة تمثل أحد النبلاء ، ولم تكن ملامحه غريبة عنها ، فأين رأته ؟ نظرت إلى وجهه الشاحب وعينيه السوداوين وشعره الكستنائي ، فقدّرت عمره في حوالي الأربعين ، تلوح عليه سيما العزة والنبل ، وقد غطت صدره درع فولاذية لامعة ، يخترقها منديل أبيض حريري ، وعلى

الرغم من الخوف الذي كانت تحس به فإن اللوحة جذبت انتباهها ، ورأت شبهاً قليلاً بين صاحبها وبين فالومبروز ، ولكن التعبير المرتسم على اللوحة يختلف عن ملامح الدوق الخبيث .

بعد دقائق دخل الخادم وقال :

– المائدة جاهزة يا آنستي .

ووضع خادمان أمامها طاولة صغيرة عليها قدر كبيرة من الفضة تحتوي على حساء ساخن وطبق من الدجاج وقطع من الخبز الطازج ، ولم تجرؤ على لمس الطعام على الرغم من جوعها خوفاً من أن يكون فيه مخدر ، وكأنما تفهَّم الخدم سبب خوفها ، فذاقوا الطعام وهي تراهم ، فتناولت منه شيئاً قليلاً ، وجلست أمام المدفأة ترتعد من الحمّى .

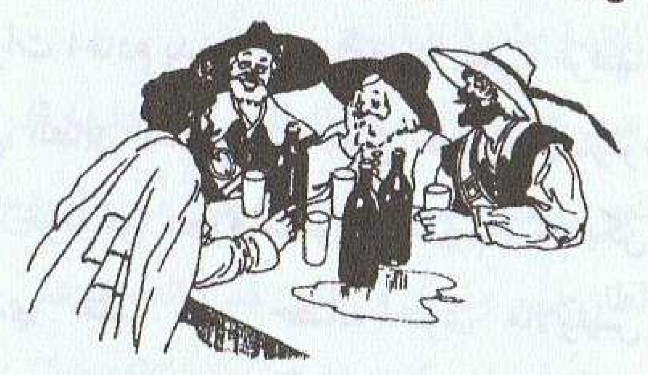
نهضت إيزابيل من النافذة فلم تجد لها قضبان حديد تذكّرها بالسجن ، وانحنت تنظر إلى أسفل فرأت خندقاً من الماء يحيط بالقصر كله ، وقد رفع الجسر المتحرك كله الذي يصله

بالطريق ، فلا سبيل إلى دخوله إلا سباحة ، ورفعت بصرها إلى الأفق فرأت أشجاراً ضخمة تحيط بالقصر من كل جانب ، وتتشابك أغصانها فوق الخندق المائي ، فيئست من أي محاولة للهرب أو النجاة ، وكانت البائسة تفزع لأي حركة تسمعها ، وتتوقع أن ينفتح باب سري ليدخل أحد الخاطفين ، وارتجفت فزعة إذ رأت الخادم يدخل ومعه شمعدان يضيء غرفتها .

أما في الطابق السفلي فقد جلس خاطفوها يتناولون الطعام ويحرسونها خوفاً من هجوم سيغوياك عليهم ، ولم يكن الفارس المقنع الذي حملها على حصانه سوى مالارتيس صديق لامبورد .

قررت إيزابيل أن تنتزع نفسها من حالة الانتظار والقنوط التي أحاطت بها ، فنــزلت من غرفتها تتجول في ساحة القصر وأرجاء الحديقة لعلها تجد مخرجاً ، ونظرت إلى الخندق المحيط بالقصر فانعكست صورتها عليه ، ورأت الجسر المتحرك مرفوعاً .

ولاحظت أن النوافذ والأبواب مغلقة ، إلا غرفة في الطابق الأرضي ينفذ منها النور ، فنظرت من ثقب الباب لتجد أربعة رجال جالسين يتسامرون ويضحكون وفيهم أوغسطين ، فصعدت إلى غرفتها متعبة ، وكم كانت دهشتها عظيمة وهي ترى شخص إنسان جالس بقرب المدفأة .



فاقتربت لتجد شيكيتا بجسدها النحيل وعينيها السوداوين الواسعتين وشعرها الأسود الطويل ، وقد ارتدت ثوباً من الكتان الخشن ، وحول عنقها الأسمر عقد تلمع حباته البيضاء .

فهتفت مندهشة :

– شيكيتا ؟

وأما الفتاة فكانت تغني أغنية ألّفتها بنفسها بصوت خافت :

– شيكيتا ترقص على الحبال ..

وتمرّ من ثقب الأقفال ..

ورفعت رأسها وسألت إيزابيل :

– هل السكين معك ؟

– نعم إنه معي أخبئه في ثيابي .. ولِمَ هذا السؤال ، هل حياتي في خطر ؟

فقالت الفتاة وعيناها تلمعان ببريق متوحش :

– السكين صديق وفيّ ، لا يخون سيده إذا سقاه ، لأن النصل يحسّ بالعطش .

فقالت إيزابيل وقد اضطربت كلماتها :

– آه يا ملعونة .. إنك تخيفينني !

فلم تأبه لها شيكيتا وتابعت :

– اشحذي النصل على رخام المدفأة ، ثم مرريه على جلد حذائك .

– ولِمَ تقولين لي هذا ؟

– لأن من يريد الدفاع عن نفسه يشحذ سلاحه .

– ولكن كيف دخلت إلى هنا ؟ هل كلفوك بمراقبتي ؟

– لا ، لقد جئت وحدي ، اجتذبتني النار والنور ، ولا أحب أن أقبع في زاوية على حين يأكل الرجال ويشربون ، كأني قطة تنام تحت الطاولة ..

– ولا تخافين من التجول دون شمعة عبر هذه الدهاليز والغرف المعتمة ؟

– شيكيتا لا تعرف الخوف وعيناها تبصران في الظلام ، وقدماها لا تتعثران ، وإذا رأتها الأشباح التصقت بالحائط لئلا تلمسها ، أو ولت هاربة .. ولكني أحب الجلوس بجانبك قرب المدفأة ، أنت جميلة وأحب أن أراك ، ما أشد بياض يديك ،

وإذا وضعت يدي بقربهما ظهرتا كأنهما يدا قرد .. إني بشعة أليس كذلك ؟

فتأثرت إيزابيل لهذا الإعجاب البريء وقالت :

– لا يا صغيرتي ! إن لك جمالك ، ولا ينقصك سوى الملابس الأنيقة والتسريحة الملائمة لشعرك لتكوني أجمل الفتيات .

فتورد خدا الفتاة وأشرق وجهها بالابتسام ، وسألتها إيزابيل :

– هل تعرفين أين نحن ؟

– في قصر النبيل الذي يملك أموالاً كثيرة ، وقد حاول اختطافك في (بواتييه) ، ولكنك وهبتني عقد اللؤلؤ ولا أريد أن أسبب لك الأذى .

– ولكنك ساعدت الرجل على اختطافي ، وكيف تحبينني وأنت التي أسلمتني إلى أعدائي ؟

– أوغسطين يأمر وأنا أنفذ ، ولولا ذلك لاختاروا دليلاً للأعمى غيري وما استطعت دخول القصر معك ، ولعلني أفيدك ، فأنا شجاعة نشيطة قوية وإن كنت صغيرة ، ولن أسمح لأحد بإيذائك !

فأجلست إيزابيل الفتاة على ركبتيها واحتضنتها وهي تقول :

– هل باريس بعيدة عن سجني هذا ؟ وهل سمعت اسم المكان الذي أنا فيه ؟

– أظنه قصر فالومبروز الذي تكرهينه ، وأظنك تتمنين الخلاص منه ؟

– هذا مستحيل فالخندق يحيط بالقصر ، والجسر المتحرك قد رفع !

فقالت شيكيتا :

– شيكيتا تخرج من بين القضبان وتخترق الجدران ، وإن شئت فإن الكابتن فراكاس سيعرف مكانك قبل شروق

الشمس ، ولكن دعيني أتأمل ، ولا تنطقي بكلمة لكي أتكلم مع (الجني) !

وأحنت الفتاة رأسها ووضعت يدها على عينيها ولبثت جامدة بضع دقائق ، ثم رفعت جبهتها وفتحت النافذة وحدقت في الظلام ، كان ماء الخندق المعتم تجعده نسمات السماء .

وقالت إيزابيل لنفسها وهي ترقب حركات شيكيتا :

– وهل ستحلق مثل طائر عجيب ؟

في الجانب الثاني من الخندق ارتفعت أشجار معمّرة ، وامتدت أغصانها العالية حتى أسطحة القصر ، ولكن أقرب غصن فيها يبتعد عن الحائط ثماني أو تسع أقدام ، دخلت شيكيتا الغرفة فأخرجت من جيبها بكرة خيطان رفيعة متينة ، وكرّها على طول الأرضية ، ثم جذبت من جيبها الآخر كلاّباً صغيراً ، فربطته بطرف الخيط ، ثم دنت من النافذة ورمت الكلاّب على الشجرة مرّة بعد مرّة حتى ثبت على أحد أغصانها ، وطلبت من إيزابيل أن تجذبه بكل قوتها حتى انحنى

الغصن واقترب من الجدار بحوالي ست أقدام ، فربطت شيكيتا
طرف الخيط الآخر بإفريز النافذة ربطاً محكماً ، ثم انزلقت على
الخيط إلى الشجرة ، فتشبثت بغصن قوي منها ، ثم همست إلى
إيزابيل :

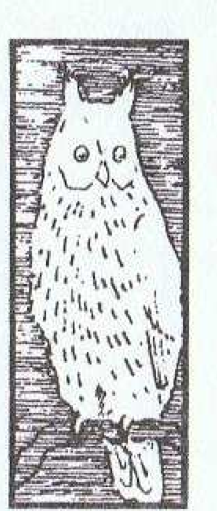


– فكي عقدة الخيط لكي أسحبه إليّ ، إلا إذا رغبت في
الذهاب معي ، ولكن الخوف سيشد قدميك فتسقطين في
الماء .. إلى اللقاء .. سأمضي إلى باريس وأعود إليك سريعاً ،
فالركض يحلو لي تحت ضوء القمر .

وفعلت إيزابيل ما طلبت منها شيكيتا ، فعاد الغصن إلى
وضعه الأول ، وهبطت الفتاة من الشجرة وقفزت إلى الأرض
كالقطة ، ثم اختفت في ظلال الليل الزرقاء ..

الفصل الثامن

أسيرة القصر



تزاحمت الهموم على إيزابيل حتى فقدت شهيتها إلى الطعام ، وكانت تفكر بهذه الفتاة البائسة التي تغامر بحياتها من أجل لمسة حنان ولمحة عطف ، على حين يغرق أولئك النبلاء في ملذاتهم غير مبالين بالقلوب التي تدوسها أقدامهم ، كما يدوس الدب شجيرات الياسمين .

وتقدم إليها الخادم يسألها بأدب إن كانت بحاجة إلى خادمة تساعدها في ارتداء ثيابها ، فرفضت ذلك ، فوضع على السرير فستان نوم من الحرير ، وبدّل الشموع ، ورمى في المدفأة جذعاً من الحطب ، ثم حيّاها باحترام وانصرف .

وتمددت إيزابيل على السرير بثيابها لتكون متأهبة لكل طارىء ، ثم استلّت سكين شيكيتا وجعلته في متناول يدها ، وأسبلت جفنيها لعلها تنام بعض الوقت ، ولكن أطياف هذا اليوم الرهيب تمر أمامها صوراً مفزعة تطرد النوم عنها ، واشتد بها التعب وثقل رأسها ، فذهبت في سبات عميق تتخلله الكوابيس .

ذلك المساء ، لم يكن الدوق في مزرعته ، ولكنه سعى بكل وسيلة لإبعاد الشبهات عنه ، فشُوهد يوم الاختطاف في القصر الملكي ، واشترك مع الملك في صيده وتحادث إلى عدد من النبلاء .

استيقظت إيزابيل فأدهشها الوقت الطويل الذي نامت فيه ، فقد تسللت من ستائر النافذة أشعة الشمس وداعبت خصلات شعرها ، فابتهجت لطلوع النهار .

ولم تطل بهجتها إذ سمعت صرير الجسر المتحرك وصوت عربة يدوي في ساحة القصر ، ومن يجرؤ على الدخول بهذا

الاندفاع سوى سيد المكان .. دوق فالومبروز نفسه ؟ فشحب لون إيزابيل وخفق قلبها بين ضلوعها ، ولكنها تمالكت نفسها وسيطرت على فزعها واستعدت للدفاع ، وقالت في سريرها :

– عسى شيكيتا تأتي بالنجدة في الوقت المناسب .

ثم رفعت عينيها إلى اللوحة الكبيرة فوق المدفأة وخاطبتها :

– وأنت أيها السيد النبيل احمني من أذى نسلك ، ولا تسمح بأن يدنّس هذا المكان بشرور أبنائك ، أو تكون طلعتك البهية شاهدة على بأسائي .

انقضت ساعة قبل أن يدخل الخادم إليها يسألها إن كانت تسمح لدوق فالومبروز بزيارتها !

فقالت له بكبرياء :

– ما أنا إلا سجينة ، ومتى كان للسجين أن يرفض أمر سجّانه ؟ فأنا لا أسمح بزيارة الدوق بل تُفرض عليّ قسراً ، اذهب فأعد كلماتي على مسمع سيدك !

فانحنى الخادم ومضى ، ورجع بعد لحظات يعلن عن قدوم فالومبروز .



وكانت إيزابيل قد تعثرت بالكرسي لفرط اضطرابها ، وعلا وجهها شحوب الموت ، فتقدم فالومبروز نحوها وحيّاها قائلاً بصوت رقيق :

– لئن كان حضوري يثقل على نفسك انصرفت يا إيزابيل الجميلة ، ولا أطلب منك سوى بعض الوقت لكي تألفيني .

فقالت إيزابيل :

– لقد تأخرتَ في إظهار أدبك بعد أن آذاني اختطافك لي

– أنت التي دفعتني إلى العنف ، ولم تتركي لي فسحة للأمل ، إذ أغلقت بوجهي باب قلبك ، فاضطررت إلى مواربته لعلّ شعاعاً من حبي ينفذ إليه .

فأجابته إيزابيل بأنفة :

– لقد زرع عنفك الحقد في نفسي التي لم تألف الحقد ..

فقال الدوق بصوت مرتجف :

– ولكني لا أستأهل هذا الحقد ، إن بي شوقاً إلى ..

– لن تجد في نفسي سوى الاحتقار لك .

فعضّ الدوق على شفتيه وقد شحب لونه وقال :

– أهذا كل ما أنتظره منك ؟

فقالت إيزابيل :

– ما تزال أمامك وسيلة تنال بها احترامي وتكسب صداقتي ، أعد لي حريتي التي سلبت ، وردّني إلى رفاقي الذين يقتلهم القلق على مصيري ، ودعني أرجع كما كنت ممثلة بسيطة ، قبل أن تلوك ألسنة السوء سمعتي .

– واحر قلباه ! أتطلبين مني ما يستحيل تنفيذه ، سليني عرشاً أو نجمة تجديهما تحت قدميك ، وأما المستحيل فأن أفتح باب القفص ليطير العندليب ، وهل أفرط بك بعد أن أصبحت ملك يدي ؟ وهل أخلي سبيلك لتعودي لمن تحبين ومن أكره ؟

فرفعت إيزابيل جبينها وقالت :

– أهكذا يفعل السيد النبيل ؟ كلا .. إنما هو عمل القرصان الحقير ، فإلى متى أظلّ أسيرة لديك ؟

– حتى تخفضي جناح ودك لي ، ويتسرب حبي إلى شغاف قلبك ، وأسمعك تقولين لي (إني أحبك) .

ثم حيّاها وانصرف .

فتهالكت إيزابيل على المقعد تذرف بالدموع ، ولم يمنعها من الاستسلام إلى اليأس سوى صورة سيغوياك التي تمثلت لها ، ولعله يستعد الآن لنجدتها وانتشالها مما يحيط بها من أخطار ..

وشبكت يدها وهي تقول :

– رباه ! في أي هلكة رميت من أهوى ؟

في تلك اللحظة سمعت نقراً خفيفاً على زجاج النافذة كأنه صوت حصاة ، فاندفعت إليها فرأت شيكيتا فوق الشجرة تطلب منها أن تفتح لها .

ورمت الفتاة بطرف الخيط إليها وقد ثبتت الكلاّبة فيه وانزلقت كما فعلت في المرة السابقة ، ولكنها لم تكد تصل إلى منتصف المسافة حتى انزلق الخيط ، وظلت شيكيتا معلقة تحت النافذة ، إلا أن الفتاة لم تفقد سرعة بديهتها ، فتشبثت بالخيط ، ودفعت قدميها إلى الحائط ، وتسلقت النافذة ، فضمتها إيزابيل إلى صدرها .

فقالت شيكيتا :

– هل خفت ؟ إني ربطت الخيط إلى الغصن بأنشوطة منـــزلقة تسمح لي باستعادته ، التقيت بأصدقائك ، وقد حملني الكابتن على حصانه وهو مختبىء الآن في الغابة مع رفاقه قرب القصر ، وسيحاولون إنقاذك هذه الليلة ، وسوف نتفرج على ضربات السيف وطعنات الخناجر ، هذا رائع ! .. وإياك أن

تصرخي مستغيثة ، وإلا أدخلت الجبن إلى قلوب أصحابك ، والتصقي بي لئلا ينالك الأذى !

– اطمئني لن أفعل ما يثبط همة أولئك الشجعان !

– دافعي عن نفسك بالسكين الذي أعطيتك .. وأما أنا فسوف أبحث عن ركن أنام فيه لئلا يرونا معاً ، ولاتطلي من النافذة حتى لا تثيري شكوك حراسك .

ومضت شيكيتا لتنام في الطابق السفلي دون أن يهتم الرجال لغيابها ، إذ سارت ستة فراسخ الليلة الماضية ما بين فالومبروز وباريس .

ونهض مالارتيس من نومه الثقيل ، وتلفت حوله فوجدها نائمة تحت الطاولة فقال :

– هؤلاء الصغار لايسأمون من النوم ، انهضوا يا رجال وادلقوا على رؤوسكم سطل ماء ، لنقوم بجولة تفقديه في القصر خوفاً على أسيرة الدوق الحسناء .

خرج الأربعة من القاعة يجرون أقدامهم وهبطوا الدرج المؤدي إلى خندق الماء ، ففكوا السلسلة التي ربط إليها قارب صغير ، فركبوه وعبروا الخندق إلى ساحة القصر ، ثم تجولوا في الممرات وفتشوا الشجيرات ، فلم يجدوا شيئاً يثير شكوكهم ، فعادوا إلى القصر بعد ساعة ، وربطوا القارب إلى سلسلته .

أقبل المساء ، فدخل الخدم غرفة إيزابيل فأشعلوا الشموع ، ثم جاء رئيس الخدم ليعلن لها عن زيارة الدوق ، فاندفع فالومبروز وراءه وحيَّا إيزابيل باحترام ، وكان بهيَّ الطلعة ، يرتدي ثياباً من البروكار والحرير ، ووضع باقة من الزهور تحت قدميها ، فأشاحت عنها بوجهها .

فقال لها :

– ألا تلقين نظرة واحدة إلى هذه الزهور اللطيفة ؟ ليكن ! ستألفين رؤيتي كل يوم كما تألفين رؤية هذه الباقات كل صباح .

فأجابته إيزابيل :

– لا جدوى من الاثنتين معاً ، وآسف لهذه اللهجة الخشنة ، ولكني أفضل أن أكون صريحة معك .

فقال غاضباً :

– اعلمي إذن أن لا قدرة لأحد على مقاومة رغبة من رغبات فالومبروز .. واحذري يا إيزابيل ! وإلا انقلب احترامي لك حقداً أعمى عليك .

وارتعدت إيزابيل لما طرأ على ملامح الدوق من تبديل وهو ينطق بهذه الكلمات ، فقد رأت في وجهه الشر والضغينة وسوء العاقبة .



ووضعت يدها على صدرها لتجذب السكين ، ولكنها ترددت إذ سمعت ضجة خافتة لا تكاد تُسمع ، صادرة من أسفل الخندق ، وكأنها حركة دائبة رتيبة ، فأدركت أن أصحابها يعملون على إنقاذها ، فنهضت ونظرت إلى الدوق نظرة احتقار ، وصاحت بصوت مرتفع ليطغى على الحركة في الخارج :

– لا شيء يجذبني إليك ، على العكس ، كلما رأيتك تضاعفت كراهيتي لك ، وإن تصرفك ليدل على سوء خلقك ، وأنا أحب سيغوياك الذي سَعَيْتَ إلى قتله مرات ومرات .

تطاير الشرر من عيني فالومبروز ، وتصاعد الزبد من جانب فمه ، ومدّ يده إلى مقبض سيفه وقد عبرت ذهنه كالبرق فكرة قتل إيزابيل ، فتقدم إليها . وخافت إيزابيل مما رأت في عينيه من الأذى فأمسكت سكين شيكيتا وأطلقت صرخة .

في تلك اللحظة تكسر زجاج النافذة وانهار إطارها تحت ثقل غصن الشجرة الذي نشره سيغوياك ، فكان كالجسر بينها وبين غرفة إيزابيل .

وخطا فالومبروز إلى الوراء ، وقد استل سيفه استعداداً للقتال ، واندفعت شيكيتا إلى الغرفة كالقط البري ، وجذبت إيزابيل من كمها ، وقالت لها :

– اختبئي وراء الأثاث فقد بدأت الحفلة الراقصة .

وانطلقت في الجو رصاصات تردد صداها في سكون الليل ، فانتبه الخاطفون إلى الهجوم .

الفصل التاسع

خاتم العقيق

جرى مالارتيس مع رجاله الثلاثة
يصعدون الدرج إلى غرفة إيزابيل ،
على حين هبط ميرونديل مع حراس
الدوق إلى القارب وعبروا الخندق
ليطوقوا المهاجمين .

وتقدم الدوق إلى إيزابيل التي
اختبأت مع شيكيتا وراء إحدى الطاولات ، فأمسك بها ،
ولكنها أفلتت منه واندفعت إلى النافذة تنادي سيغوياك ،
فجذبها الدوق ودفعها إلى صدر القاعة .

فهمست إيزابيل وقد فقدت قواها :

– النجدة يا سيغوياك ! .

وإذا برجل يندفع من النافذة كالبرق الخاطف ، فأطلق الرجال الأربعة مسدساتهم بآن واحد ، وحين انقشع الدخان وجدوه منتصباً بينهم وسيفه بيده ولم يصب بأذى . وانتهز الدوق هذه الفرصة لكي يجذب إيزابيل إلى باب سري يؤدي إلى حجرة مجاورة وهي تكاد تفقد وعيها ، ولحسن الحظ فإن شيكيتا تسربت وراءهما كالظلّ ولم ينتبه الدوق إليها .

وصاح سيغوياك بالرجال :

– أين إيزابيل أيها الأشقياء ؟ لقد سمعت نداءها .

فأجابه مالارتيس بصوت هادىء :

– لم تكلفنا بحراستها ، فاعذرنا إذا غابت عن أنظارنا .

وارتمى على البارون بطعنة سيف ، فصدها بمهارة ، وصاح مالارتيس برفاقه :

– احرسوا النافذة !

ولكن بعد أن عبر سكابان النافذة وبلمحة عين رأى أن الرجال مشغولون بحشو مسدساتهم وقد تركوا سيوفهم جانباً ،

فرماها من النافذة ، وانتهز دهشة الرجال فقبض على أحدهم المدعو (برغنيل) وطوق وسطه بيديه واحتمى به كالدرع ، ودفعه لمواجهة المسدسات ، فصرخ برغنيل وهو يكاد يختنق :

– لا تطلقوا النار !



لم يكن بيغري يحب برغنيل كثيراً ، فصوّب مسدسه إلى سكابان ، وكان أطول منه قامة ، وأطلق الرصاص فخفض سكابان رأسه فجرحت أذن برغنيل ، فصاح وهو يتلوى بين ذراعي سكابان :

– أنا ميت .. أنا ميت ..

ولكن صوته المرتفع يبرهن على العكس ، ولاحظ سكابان أن برغنيل لا يصلح درعاً له ، فرماه على أصحابه فسقطوا أرضاً ، وانتهز هذه الفرصة ليضرب رأس أحدهم بقدمه فيفقده وعيه ، ويطعن يد الثاني بخنجر .

أثناء ذلك كان سيغوياك قد تبادل مع مالارتيس بضع ضربات ، ثم جرده من سلاحه ، ووضع طرف سيفه فوق عنقه وهو يصيح به :

– استسلم وإلا قتلتك !

وقفز من النافذة وافد جديد فصاح بمالارتيس :

– اسمع نصيحته ، واعتبر نفسك أسير حرب ، فلا عار عليك في ذلك ..

ثم التفت إلى سيغوياك قائلاً :

– صدق كلامه لأنه رجل (شريف) على طريقته ، ولكنه إذا وعد لم يخلف وعده ، ولن يهاجمك بعد ذلك .

كان الوافد جاكمن لامبورد ، فوافق مالارتيس على كلامه ، وخفض سيغوياك سيفه ، ومضى مالارتيس إلى زاوية من الغرفة ذليلاً ، فجلس على أحد المقاعد مطأطىء الرأس يعتني بجرح نازف في ذراعه .

وقال لامبورد مشيراً إلى الرجال الثلاثة الذين صرعهم سكابان :

– أما هؤلاء الأنذال فالأفضل أن تشدّ وثاقهم لأني لا أضمنهم ولا أثق بكلامهم .

كانت هذه الأحداث تجري داخل القصر ، وأما خارجه فقد وصل إلى جانب الخندق ميرونديل وأوغسطين وثلاثة من رجال الدوق ، وبدؤوا يتسلقون الشجرة ، وقد سبقهم إلى أحد أغصانها الجبار هيرود ، ولكن تبين له أن ذروتها لا تتحمل ثقله وقد تتكسر به أغصانها ، فنــزل عن جذعها فاصطدم بميرونديل وقد عضّ على خنجره بأسنانه ، فأمسك الجبار بعنقه ورماه إلى الخندق ورأسه يسبق قدميه ، وقال لنفسه :

– إذا لم يمت خنقاً فسوف يموت غرقاً .

وفجأة التمعت نار من بعيد ، فخفض رأسه لتمرق الرصاصة أمام أنفه وتصطدم بالشجرة ، فهبط إلى الأرض فوجد رابييه يصيح :

– آه .. لقد انحرفت رصاصتي .

فأجابه الجبار :

– مع أني سمين وأصلح هدفاً سهلاً لك .

فاستل رابييه سيفه وهجم عليه ، فأهوى الجبار عليه بهراوته فكسره ، ثم اندفع إلى رابييه ..



وتدحرج الرجلان برهة ، فكان الجبار هو الأقوى ، فحمله ورماه في الماء ، ولكنه تمسك بغصن شجرة متدلٍ وهو يصيح :

– انقذني .. لا أعرف السباحة .

فوقف الجبار والهراوة بيده وقال له :

– أنت الآن بين أمرين : إما أن أهديك ضربة على رأسك ترى بها النجوم في هذا الظلام ، أو تعدني بأن تنسحب من هذه المعركة .

– لا .. أعدك بالانسحاب .. ولكن أنقذني بحق الله .

– سأنقذك على شرط أن تساعدني في اجتياز الخندق ، فما رأيك ؟

– سأساعدك ، ولكن أسرع فالغصن يتكسر .

– وهل تقسم على ذلك ؟

– أقسم بشرفي .. سأساعدك .

فمد إليه الجبار يده وحمله من تحت إبطه كأنه طفل ، فجلس رابييه على الأرض وهو يتنفس بصعوبة ، فجذبه الجبار من قميصه قائلاً :

– هيا .. ليس الآن وقت الراحة ، كيف أصل إلى القصر ؟

فقال رابييه :

– يجب أن تركب هذا القارب وتجذف حتى ذلك الباب الصغير الذي تراه ، وهو يؤدي إلى القصر .

– حسناً .. وهذا الحارس الذي أراه قرب القارب ماذا أفعل به ؟

– سأتولى أمره بنفسي ، إنه يعرفني ويثق بي .

واقترب رابييه من أوغسطين وقال له :

– إن ميرونديل يطلب مساعدتك فأسرع إليه .

– والقارب ؟

– سأتولى حراسته ، أسرع ..

وابتعد أوغسطين ، فقال رابييه للجبار :

– لقد وفيت بوعدي ، وداعاً لا لقاء بعده ، واختفى بين الأشجار .

ركب الجبار القارب وجذف بسرعة حتى وصل إلى الباب ، ففتحه وصعد الدرجات الحجرية ، فوصلت إلى سمعه أصوات المعركة .

كان سيغوياك ولامبورد وسكابان يحاولون فتح الباب الذي يفصل بينهم وبين إيزابيل ، ولكنه صمد أمام ضرباهم ، فقال سيغوياك :

– لنشعل النار به !

فقال لامبورد :

– سيطول اشتعاله ، فلنحمل هذا المقعد ونصدم به الباب .

وصدموا الباب صدمات قوية ، فلم يتزحزح من مكانه ، فصرخ لامبورد يائساً :

– والله إن النجار الذي صنعه لم يسرق أجرته ، كأنما طلبوا منه بناء جدار لا صنع باب ، سأحاول انتزاع القفل بخنجري هذا .

وقبل أن يلمس لامبورد الباب سمعت طقطقات خفيفة كأنه مفتاح باب يدور في قفل ، ثم انفتح الباب ، فصاح سيغوياك :

– من ذلك الملاك الذي هبَّ لنجدتنا ؟

وظهرت شيكيتا وراء الباب تحدق في البارون بنظراها الثابتة الغامضة ، وقالت وهي تشير إلى زاوية من الحجرة :

– إنها هنالك .

كانت إيزابيل جاثية ووجهها إلى الحائط وفالومبروز يحميها بجسده وقد استعد للقتال ، وقالت شيكيتا :

– إيزابيل هنا .. ولكنك لن تحصل على المرأة إلا إذا قتلت الرجل .

واشتبك النصلان بسرعة ومهارة . وأثناء ذلك كان يبحث فالومبروز عن شيء معلق في رقبته ثم أمسك به ، وإذا هو صفارة من الفضة ، فنفخ فيها فأصدرت صوتاً ثاقباً متطاولاً ، وابتسم ابتسامة خبيثة شرسة .



كان مالارتيس ولامبورد وسكابان يتفرجون على المبارزة الدائرة بين زعيمي الفريقين المتنازعين ، وجاء سكابان بالمشعل من الحجرة المجاورة لكي يضيء هذا المشهد المريع ، وفجأة انفتح باب الحجرة واندفع إليها خمسة من الخدم .

فصاح بهم الدوق :

– احملوا هذه المرأة .. وتخلصوا من هؤلاء ، سأتولى أمر الكابتن .

وهجم على سيغوياك فجرح يده ، ولكنه تلقى من سيف سيغوياك جرحاً أصاب أعلى صدره فسقط أرضاً ، واستقبل لامبورد وسكابان الخدم أحسن استقبال ، وحين رأوا سيدهم مستنداً إلى الحائط والدم يتدفق من بين أصابعه ، ولّوا هاربين وهم يحملون إيزابيل ، فناداهم بصوت ضعيف :

– إليّ أيها الجبناء ! أتتركون سيدكم بلا معين ؟

كان هيرود يصعد الدرج ، فالتقى بخادمين يحملان إيزابيل فصرعهما بهراوته ، ومدد الفتاة على الأرض وهو يحاول إسعافها ، وانضم إليه سيغوياك فجثا بجانبها وهو يضطرب من الجزع :

– أفيقي يا إيزابيل ! إنك بين ذراعي حبيبك الآن ، فلا تخافي شيئاً .

ففتحت إيزابيل عينيها الغائمتين وتأملت ما حولها ، وإذا صوت الأبواق يرتفع في القصر ، إنه نداء سيد نبيل ، وسمعت ضوضاء العربات وسنابك الخيل في ردهات القصر ، ثم ظهر أربعة من الخدم يحملون الشموع الضخمة تشع بالأنوار ، يتقدمون رجلاً مهيب الطلعة يرتدي ثياب المخمل الأسود ، وعلى صدره وسام لا يضعه سوى من كان أميراً أو ملكاً ، وتوقف أمامهم .

على الرغم من أن الزمان قد خلف على وجهه بعض التجاعيد إلا أن الناظر إليه يعرف أنه صاحب اللوحة المعلقة في القاعة التي كانت تتأملها إيزابيل أثناء سجنها ، إنه والد فالومبروز .

ورأى إيزابيل غائبة عن الوعي شاحبة الوجه ، فانحنى عليها وهو يقول :

– لقد وصلتُ متأخراً .

وأمسك بيدها البيضاء التي كان خاتم العقيق يلتمع فيها ، وهو الميراث الوحيد الذي تركته لها أمها ، وظهر على الأمير فالومبروز الاضطراب لرؤية هذا الخاتم ، فقرب وجهه إليه يتفحصه بإمعان ، فاصفرَّ وجهه وارتجفت شفتاه ، وقال بصوت مرتعد :

– أين فالومبروز ؟ أين هذا الولد الذي جلب العار لأهله ؟

واعتدلت إيزابيل ، فأحنت رأسها أمام الأمير بخجل ، فردد في ملامحها بصره كأنه يتذكر شيئاً عزيزاً عليه وقال :

– من أعطاك هذا الخاتم يا آنسة ؟ إن له ذكريات عندي .

فقالت إيزابيل :

– هو لي منذ طفولتي ، وقد أعطته لي أمي قبل وفاتها .



وهتف الأمير وهو يشدّ على يدها :

– وماذا كان اسم أمك ؟

– اسمها كورنيليا ، وكانت ممثلة في الفرقة التي أعمل بها الآن .

وصاح الأمير :

– كورنيليا .. ! لا شك في ذلك .

وسأل عن فالومبروز فرآه واقفاً يسنده مالارتيس ، فقال له الأمير :

– لقد تجاوزتْ نزواتُك حدها ، وسوف أرجو الملك لكي ينفيك نفياً مؤبداً ، وقد أغفر لك جرائمك إلا هذه الجريمة التي ارتكبتها ، أتعرف من هذه الفتاة ؟ إنها أختك .

فقال له ولده :

– ستكون لك بديلاً عن ابنك الذي ستفقده ، ولكني لم أرتكب العار الذي تتخيله ، وأقسم لك بالله الذي سألقاه أني لم ألمسها ، الوداع يا أبي ..

وسقط دفعة واحدة ، ولم يستطع مالارتيس تداركه ، وقال لامبورد :

– جرحه غير مميت .. وسوف يحيا !

وصاح الأب جزعاً :

– أحضروا الطبيب .. مكافأة لمن ينقذ ولدي .

واندفع الخدم مسرعين لإحضار الطبيب ، وحُمل فالومبروز إلى غرفته ومُدد على سريره ، والتفت الأمير إلى القتلة المحترفين وصاح بهم :

– اغربوا عن وجهي يا من وضعتم سيوفكم في خدمة نزواته الشريرة ، ادخلوا جحوركم وسوف تقتص العدالة منكم .

ثم توجه إلى سيغوياك بالخطاب :

– يمكنك الانصراف يا سيدي وأصحابك ، فلن تخاف إيزابيل شيئاً وهي بجانب أبيها ، فهذا القصر مسكنها ، لقد كنتَ فارساً شهماً يشهر سيفه دفاعاً عن الضعفاء والمظلومين ، وقد كان ولدي مجرماً فأحسنت إليّ إذ قتلته ، ولئن تلطخ شرفي بالدم فذلك خير من أن يلطخه الوحل ، هذا ما يمليه عليّ عقلي ، ولكن قد تغلبني عاطفتي فيوسوس لي قلب الأب بالانتقام ، فترفق بي وساعدني على نسيانك .

فأجابه سيغوياك بصوت رزين :

– إني لأنحني إكباراً لآلام الأب المفجوع ولكنها معركة شريفة ، دفع فيها الحقد الأعمى ولدك إلى حدِّ سيفي ، وأترك بين يدك إيزابيل الأغلى عليّ من روحي ، وسأختفي آسفاً على

انتصار دفنتُ سعادتي تحت أنقاضه . أواه .. كم تمنيت أن أكون قتيلاً على أن أقتل شقيق من أهوى !

ثم نظر سيغوياك إلى إيزابيل نظرة وله ومضى يجرّ قدميه ، وهبط الدرج ذاهلاً يتبعه سكابان وهيرود ولامبورد ، فوجدوا خيولهم في الغابة ، فامتطوها متجهين إلى باريس .

قال سيغوياك لصاحبيه :

– لقد فقدت الأمل في لقاء إيزابيل ، فهي ابنة أمير وقد قتلتُ أخاها ، سأعود إلى (قصر البؤس) ولن أغادره أبداً .

فأجابه هيرود :

– إذا كانت إيزابيل ابنة أمير وأخت فالومبروز ، فإنها تظل وفية لمن تُحب .

أما إيزابيل فقد تمددت على سريرها كئيبة ، تفكر في مصيرها ومصير سيغوياك ، فأحست بحركة غير بعيدة عنها ، وإذا شيكيتا قرب سريرها ، فقالت :

– ماذا تريدين يا بنيتي ؟

– قبليني .. لأنه لم يقبلني أحد من قبل .. وأظن هذا حسناً .



فضمتها إلى صدرها وقبّلت خديها ، فارتعدت شيكيتا ثم عادت إلى هيئتها القاسية ، ورأت سكينها على المنضدة ، فقالت :

– سآخذه .. لأنك لن تحتاجيه .

– ابقي معي .

فتحسرت شيكيتا قائلة :

– إن لي سيداً واحداً .. ولا أستطيع البقاء معك ما دام أوغسطين حياً .. وخطفت السكين ومضت .

الفصل العاشر
العائلة



كان الطبيب الذي استدعي لمعالجة فالومبروز أحد خمسة من علماء عصره ، فلبث في غرفة الجريح لا يفارقه وبذل ما في وسعه لإنقاذه ، وقد شاءت العناية الإلهية أن تهب الحياة لهذا الفتى وتطرد شبح الموت عن العائلة .

وذات صباح أعلن الطبيب للأب أن شفاء ولده قريب ، وأنه سيعود إلى ما كان عليه من العافية ، فلاح طيف ابتسامة على وجه الأب الحزين ، وأفاض على الطبيب بالهدايا وأجزل له العطاء ، ووعد أن يذكره بالخير لدى الملك ، وعادت الحياة من جديد إلى القصر .

واستدعيت إيزابيل إلى أبيها كي تشاركه طعامه ، بعد أن اعتزلت الناس وأغلقت غرفتها على نفسها .

دخلت إيزابيل قاعة الطعام فوجدت أباها جالساً أمام المائدة ووراءه خادمان ، فحيّت الأمير باحترام وجلست في المكان الذي أشار إليه والدها .

فقال لها بعد صمت قصير :

– إنك أيها الكونتيسة لا تتناولين طعامك منذ يومين ، فهل تقبلين جناح هذا الحجل من أبيك ؟

فرن لقب الكونتيسة في أذنيها ، ورفعت إلى أبيها عينين متسائلين ، فقال :

– نعم ، إني وهبتك مقاطعة (لينوي) وأنت الآن كونتيسة لينوي ، لأن اسم إيزابيل على جماله لا يليق بابنتي منفرداً .

فنهضت إيزابيل ودنت من أبيها وجثت على ركبتها أمامه وقبّلت يده .



فأمسك الأب الحاني يدها وقال :

– انهضي يابنيتي ، إن ما أفعله هو العدل ، ويؤسفني أني تأخرت في تحقيقه ، ولعلك تتساءلين عما أعاقني عن البحث عنك طول هذه السنوات ! لقد كانت أمك كورنيليا صعبة المزاج ، متوفزة الأعصاب ، وأنت تعلمين ذلك ، وقد اضطرتني مكانتي في البلاط إلى كتم زواجنا ، ولكنها فسَّرت ذلك بأنه احتقار لها . فمضت هاربة بك ، وأرسلت إليّ كل ما وهبتُها من هدايا ، وبدَّلت اسمها ، وانضمت إلى فرقة

موسيقية غير فرقتها الأولى ، وتحاشت الدنو من باريس وضواحيها ، فأضعت أثرها ، على حين كلفني الملك بمهمات خطيرة في البلاد الأجنبية ، وحين رجعت منها علمت أن كورنيليا قد توفيت منذ شهور . وأما ابنتها فلم يسمع أحد عنها شيئاً ، ولا يعرف مكانها أحد ، وضاعت جهودي في البحث عنك هباء ، ولم ينسني زواجي الجديد تلك الصغيرة التي كانت تعبث أصابعها الوردية بلحيتي السوداء آنذاك ، وكنت أتعذب حين أتخيلك ممثلة بائسة ، تتنقلين مع الفرقة في عربتها بين القرى ، حتى إني كرهت حضور المسارح . ثم خطر لي أن أتردد على المسارح مرة ثانية لعلني أجدك ، وكيف أعرفك بين آلاف الممثلات والأصبغة تغطي وجوههن ؟ فيئست من العثور على ابنتي الحبيبة .

وتوفيت زوجتي بعد ثلاث سنوات ، وخلفت لي فالومبروز الذي أثقل كاهلي بنـــزواته ، وكنت منذ أيام في البلاط الملكي ، فسمعت بعض أفراد الحاشية يتحدثون عن فرقة

هيرود ، ويثنون أعظم الثناء على ممثلة شابة تدعى إيزابيل ، ويصفونها بالرقة وبراعة الأداء وحسن الأخلاق ، فدفعني إحساسي الأبوي إلى حضور المسرح لأراك وأنت تمثلين ، ولاحظت ذلك المتبجح الذي لم تكن ملامحه غريبة عني ، وتذكرت أنه كان في الفرقة التي مثلت فيها كورنيليا ، فطلبته في فندق دوفين فقيل لي إن الفرقة تقدم أحد عروضها في ضواحي باريس ، وأثناء ذلك جاءني أحد خدمي الأوفياء ليعلمني بأن ولدي قد خطف ممثلة شابة تدعى إيزابيل ، مستعيناً على ذلك ببعض القتلة المحترفين ، فسارعت إلى القصر ، وقد كان خاتم العقيق صوت قلبي الصادق . ولكن ، قولي لي يا كونتيسة ، ما اسم ذلك الفارس الذي تزعَّم الهجوم على القصر وجرح فالومبروز ؟

فقالت إيزابيل بصوت حزين وقد احمرّ وجهها :

– إنه البارون سيغوياك .

– أعرف هذا الاسم ، ولا يجرؤ على مهاجمة الدوق فالومبروز إلا من كان يجري دم الشهامة في عروقه ، ولكن كيف انضم هذا البارون إلى فرقة هيرود ؟

فروت إيزابيل إلى أبيها توقفهم في (قصر البؤس) وكيف انتزعوا سيغوياك من الجوع والكآبة ، فقال الأمير :

– إن طيف حب يحلق في جناحيه في هذا الفضاء .

بعد أن ابتعد شبح الموت عن فالومبروز ، كان يقضي أيام نقاهته جالساً في كرسي ، وإيزابيل تقرأ له ما تشاء من القصص والكتب يروح بها عن نفسه .

وقال لها ذات يوم :

– عديني يا إيزابيل أن أكون أخاك ، فو الله لا أدري سر تلك العاطفة التي كانت تدفعني نحوك ، ولعله الصوت الأخوي الخفي الذي كاد يودي بي ، وإن سلوكك الشريف يدعوني لأن أكون نداً لأختي الكبرى ، فأشهد الله عليّ أن أمتثل لأوامرك ، وأقلع عن عمل الشر فأكفر عما أسلفت من سيئات .

فابتسمت إيزابيل وقالت :

– وسوف يكون حبي لك مضاعفاً ، لنستدرك ما فات من عمرنا ..

– إني أنتظر شفائي بفارغ الصبر لكي أقدمك إلى سادة القوم ، لعلك تختارين من بينهم فتى يليق بالكونتيسة لونوي .

– لا رغبة لي في الزواج ، سأبقى بجانب أبي وأخي .

– لا .. هذا إيغال في العفاف ومبالغة في التقوى ، ألا يعجبك الفارس فيدالنك ؟ أو المركيز ديستان ؟ ما رأيك ؟

– لا .. لا رغبة لي في الزواج .

فضحك فالومبروز قائلاً :

– والله لن يكون زواجك إلا على يدي .

بعد شهرين استرد فالومبروز قواه كاملة ، وعزم على الرحيل عدّة أيام ، فاستأذن والده الأمير ، فأذن له وقال مودعاً إيزابيل بلهجة ذات معنى :

– إلى اللقاء يا أختي .. وستبلغك مني أنباء سارة !

أثناء ذلك غادر سيغوياك باريس ، ورجع إلى منطقة غاسكونيا ، وعاد إلى قصر البؤس كما يعود الطائر إلى عشه بعد هدوء العاصفة ، فوجد كل شيء على حاله :

العنكبوت يغفو في الزوايا ، والبوم يطير تحت السقوف المهدمة ، وكادت بلزبوت وميرو وبايار تطير فرحاً لرجوع سيدها ، أما بيير الشيخ فقد سالت منه دمعة على شاربيه الأشهبين .

ودارت الأيام رتيبة يدفع بعضها بعضاً ، صباحها يشبه ليلها ، وكأن حياة سيغوياك مع الفرقة ولقاءه إيزابيل ومعاركه مع الشطّار لم تكن سوى أحلام نائم .

ولكن قلبه مسكون بحب إيزابيل ، وصورتها لا تفارق خياله .

ذات صباح جاءه بيير يعلن له عن قدوم سيد نبيل يود مقابلته ، وحين رآه أطلق صرخة دهشة .. لقد كان دوق فالومبروز نفسه .

قال الدوق :

– صباح الخير يا سيدي البارون ، تسعدني رؤيتك لأنني تناسيت ما بيننا من خلاف ، والدليل على ذلك أني جلبت لك تكليفاً من الملك بقيادة كتيبة في جيشه ، ولقد ذكّرنا الملك بإخلاص عائلة سيغوياك لجلالته وما بذله آباؤك في سبيله ، وأردت أن أحمل إليك هذا النبأ بنفسي ، أضف إلى ذلك أني أسألك إن كنت ما تزال تحب الممثلة إيزابيل التي غدت الآن الكونتيسة لونوي ، وهل أنت عازم على الزواج منها ؟ .

فقال سيغوياك :

– قد أقف عقبة أمام صعود نجمها في مجتمع النبلاء ..

فقاطعه فالومبروز :

– أما زلت تحبها ؟ لي الحق في هذا السؤال لأني أخوها .



– نعم ، كما لم يحب رجل امرأة من قبل ، وهي في الشغاف من القلب .

– وإذن .. أسرج حصانك يا قائد الكتيبة وامض معي إلى أبي الأمير وأختي الكونتيسة ، فقد رفضت الزواج من فارس ومركيز ، ولن نتوسل إليها كي تتزوج من البارون سيغوياك .

وبعد ساعات كان الدوق والبارون متوجهين إلى باريس ، وكانت الرحلة كالحلم الغابر بخاطر سيغوياك ، وقد تعرف إلى

فالومبروز الذي لامس الموت روحه بجناحه ، فطامن من غُلواء نفسه نحوه ، وارتقى بها إلى ذرى المجد الذي ناله أجداده . وأما فالومبروز فكان يكنّ الاحترام لسيغوياك وهو في غمرة كراهيته له ، فانقلبت تلك الكراهية إلى صداقة عميقة .

يوم وصولهما إلى باريس أبصرا جمهرة من الناس في ساحة (غريف) يتفرجون على تنفيذ حكم الإعدام في أحد المجرمين ، ولم يكن سوى أوغسطين يصعد درجات منصة الإعدام ، فقال سيغوياك :

– إنه قاطع الطريق الذي اعترضنا ومعه فرقته من التماثيل الخشبية ، لقد رويت لك حكايته .

– نعم .. ولكن يبدو أن دوره قد اختلف منذ ذلك الحين ، حتى انتهى به الحال إلى منصة الإعدام .

كان أوغسطين يتلفت حوله بتحدٍ وحزم ، ويقبّل من حين إلى آخر الصليب الذي يعرضه عليه أحد القساوسة ، ولكن نظراته مشغولة بالبحث عن شخصين بين المحتشدين .



أمسك السيّاف به وأوثقه لديه وأحنى رقبته ، فامتلأت النفوس بالرهبة والخوف ، وفجأة انطلقت من بين المتفرجين فتاة صغيرة ووثبت إلى المنصة والسيّاف قد رفع سيفه إلى أعلى ، فانحنت على أوغسطين فقبلت جبينه ، ثم غرست سكينها بحركة سريعة كالبرق في قلبه فمات فوراً ، ولم يكن ينطق إلا بكلمة واحدة :

– شكراً .

وهبطت من المنصة وهي تضحك ضحكاً عالياً ، فلما رأت الشرطة مقبلين للإمساك بها تعلقت بعربة فالومبروز ، وتمسكت بالباب وهي تقول لسيغوياك بصوت مرتفع لاهث :

– أنا أنقذت إيزابيل فأنقذني .

فجذبها سيغوياك إلى الداخل وصاح فالومبروز بالسائق :

– بأقصى سرعة .. ولا تبال بأحد !

وصلوا إلى مزرعة فالومبروز ، فطلب من سيغوياك أن ينتظره ، وأمر أحد الخدم بمرافقة شيكيتا إلى الكونتيسة لونوي ، وذهب لمقابلة الأمير أولاً .

صرخت إيزابيل دهشة وهي ترى شيكيتا التي اقتربت منها وهي تقول بصوت خافت :

– السكين في قلب أوغسطين ، ولم يعد لي سيد ، وأنت التي أحب بعد موته ، فهل ترغبين بي عبداً لك ؟

فجذبتها إيزابيل إليها وقبّلت جبين هذه الروح الوفية التي أخلصت لها ودّها . حينئذٍ دخل الخادم يعلن قدوم الدوق فالومبروز .

قال الدوق وهو يقبّل يد أخته :

– عزيزتي إيزابيل ، لقد انشغلت بأمرك أثناء رحلتي .

– ما الأمر الذي يشغلك ؟

– لقد رفضت الأمراء الذين اقترحتهم عليك ، ولكني وجدت لك أثناء رحلتي زوجاً يليق بك ، وسوف تشكرين لي جهودي بلا ريب .

فاصفرَّ وجهها وقالت بلهجة حازمة :

– لا يا أخي .. إن قلبي يسكنه رجل واحد ولا أقبل سواه .

– حسناً .. ولكن لا ترفضي من أقترحه عليك قبل أن تريه .

وأشار إلى سيغوياك بالدخول ، ولكن إيزابيل قد أدارت ظهرها إلى الباب ولم تنظر إلى القادم ، فقال لها أخوها بصوت ساخر :

– اسمحي لي يا كونتيسة أن أقدم إليك أعز أصدقائي البارون سيغوياك .

فالتفتت مذهولة وارتمت على عنق أخيها قائلة :

– آه .. يا أخي ، ما أطيب قلبك .

– لا أظنك سترفضين هذا العريس ! سأمضي إلى أبي لأعلمه بموافقتك .

وحين بقي سيغوياك وإيزابيل لم يجدا الكلمات للتعبير عن مكنون الفؤاد ، فالصمت أبلغ من الكلام حين تتلاقى العيون .

ثم تكلم سيغوياك فقال :

– أبارك تلك الأيام التي قضيتها بعيداً عنك ، لأنها علمتني أن لاحياة لي بدونك .

– أما أنا .. فإنها لم تعلمني شيئاً لا أعرفه من قبل .

ثم استدعاهما الأمير إليه فقال لها :

– هذا هو النبيل الذي طلب مني يدك ، وهو من عائلة أصيلة النسب عالية المقام ، ويستجيب للشروط المطلوبة في الشاب النبيل ، فهل تقبلينه لك زوجاً ؟

فأسندت إيزابيل رأسها إلى كتف أبيها قائلة :

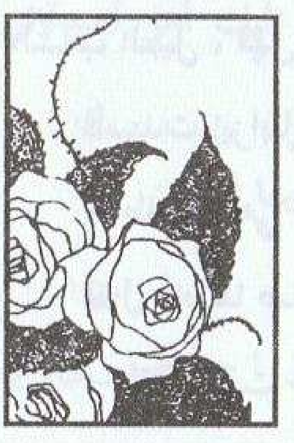
– طاعتك هي غاية المنى .

فقال أخوها ضاحكاً :

– لقد التقت الرغبتان ، إرضاء والدك وإرضاء قلبك ، وهذا لا يحدث إلا في الروايات .

بعد أسبوع عقد الكاهن زواجهما ، وكانت إيزابيل فاتنة الحسن في ثوب زفافها الأبيض ولا علاقة لها بتلك الممثلة المجهولة . وأما سيغوياك فقد أصبح قائد كتيبة وآمر منطقة كاملة ، ولا صلة له بساكن قصر البؤس القديم .

الفصل الحادي عشر
خاتمة



عاش الزوجان حياة سعيدة وارتفع شأنهما في بلاط الملك لويس الثامن ، ولكنهما لم ينسيا رفاقهما في فرقة التمثيل ، فأغدقا عليهم الكثير من الأموال والهدايا .

وكانت إيزابيل تقوم بنشاط دائب لا يطّلع عليه سيغوياك ، فتجتمع بالبنائين والرسامين بمساعدة أخيها الذي كتم سرها .

وذات يوم قالت لسيغوياك :

– ألا تفكر بقصرك القديم ومهد حبنا ؟ ما رأيك أن نصحب أخي معنا وشيكيتا التي اشتاقت إلى رؤية بلدها ؟

– إني لا أقل عنها شوقاً لرؤية قصري ، ولكن ما عساي أجد في ملعب البوم والفئران ؟

فقالت إيزابيل :

– ولكني أحنُّ إلى تلك الأيام الخوالي حين طرقت الفرقة باب قصرك ، وكنّا نرتعش من البرد والجوع فاستقبلتنا أحسن استقبال .

فضحك سيغوياك وهو يقول :

– نعم .. ولكنكم أكلتم من زادكم وأطعمتم صاحب القصر أيضاً .

فقالت إيزابيل :

– فلنشكر نعمة الله علينا إذ كنا فقراء فأغنانا ، وخائفين فأمننا ، ومتباعدين فجمع بين نفوسنا .

قال سيغوياك :

– هكذا الزمان .. لا فقر يدوم ولا غنى .. والمرء الحكيم يصغي إلى نبض قلبه وصوت ضميره ، ويفعل الخير ، لأن الإحسان لا يضيع بين الناس ، بل يجزيه الله خير جزاء .

وتدخل الدوق فالومبروز قائلاً :

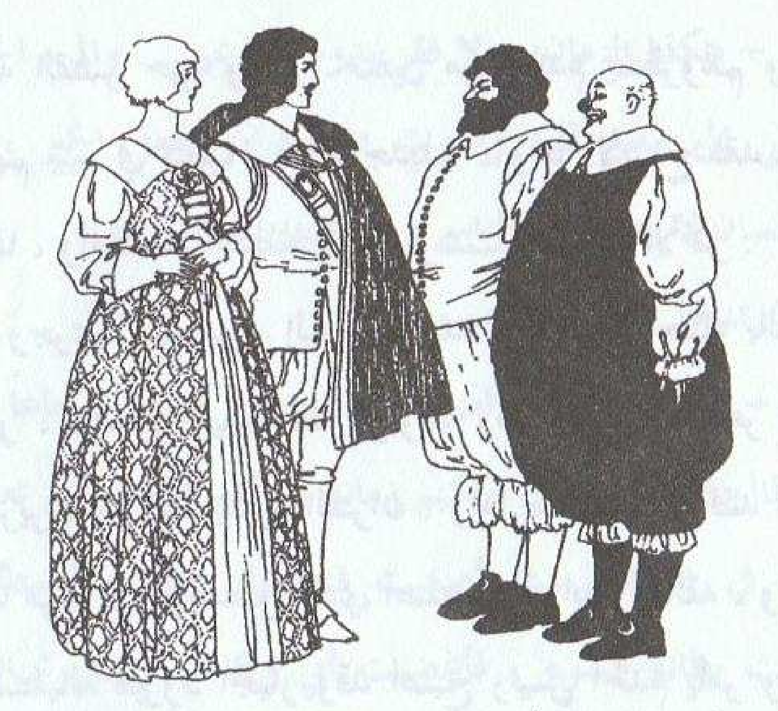
– إنك يا أختي العزيزة لم تتزوجي فارساً شجاعاً تهابه الأبطال فحسب ، بل حكيم زمانه ، وكم آسف لأني تعرفت عليه في ظروف سيئة أصغيت فيها إلى صوت الشيطان ، وتبعت بطانة السوء ، فأغضبت أبي وكدت أودي بحياة من أحب الآن .

من صباح الغد ركبوا العربات إلى منطقة غاسكونيا فوصلوها قبل غروب الشمس ، وما إن اجتازوا منعطف الطريق المؤدية إلى القصر حتى فوجئ سيغوياك بما يرى ، حتى ظنّ أنهم دخلوا قصراً غير قصرهم ، فالممرات معبدة بالحصا الناعم ، تحيط بها الشجيرات المقلمة الخضراء ، والبوابة القديمة قد استبدل بها باب من خشب السنديان . وما إن دخلوا

ساحة القصر حتى وجدوا صفين من الخدم ينتظرونهم وعلى رأسهم بيير في ثياب رمادية جديدة ، وأما الأبراج فقد أعيد بناؤها ، وأصلحت أسطحتها ، وفرشت بالقرميد الأحمر .

وجرى كلبه ميرو إليه يلعق يده وقد امتلأ جنباه بالطعام الوفير ، واندفع إليه القط بلزبوت وقد أصبح له شعر ناعم كالحرير ، ولم يعد يطارد الفئران . وأما حصانه بايار فقد احتلّ مكاناً مريحاً في الإصطبل الذي أصلحت أبوابه ومعالفه ، ووجد في استقباله هيرود الجبار وقد أصبح رئيس الخدم يأمر وينهى بصوته المدوي ، وبلازيوس المسؤول عن المؤونة وتجهيزات القصر .

وتلفت سيغوياك مذهولاً لهذه المفاجأة التي أعدتها له إيزابيل وقال : لقد تغيّر كل شيء .



فقالت وهي تشدّ على يده :

– نعم .. كل شيء .. إلا قلبينا ..

الفهرس

مغامرات الكابتن فراكاس

تيوفيل غوتييه

يرحل البارون سيغوياك عن قصره حيث يقاسي الجوع والفقر ، ويرافق فرقة تمثيلية إلى باريس . ويتعرف إلى إيزابيل الممثلة الشابة الجميلة . ولكن الدوق فالومبروز ينافسه على هذا الحب ، ويخطف الفتاة ، ويهدد حياة البارون بمؤامراته .. فهل ينتصر البارون سيغوياك على عدوه؟

صدر من هذه المجموعة :

1 ـ الذئب الأبيض
2 ـ توم سوير
3 ـ الهندي الشجاع
4 ـ مذكرات حمار
5 ـ نداء الغابة
6 ـ روبنسون كروزو
7 ـ هايدي
8 ـ حكايات أندرسون
9 ـ عشرون ألف فرسخ تحت البحار
10 ـ ريمي الصغير
11 ـ نساء صغيرات
12 ـ جزيرة الكنز
13 ـ حول العالم في ثمانين يوماً
14 ـ كوخ العم توم
15 ـ شرلوك هولمز
16 ـ مغامرات الكابتن فراكاس
17 ـ حرب النار
18 ـ الحوت الأبيض
19 ـ كتاب الأدغال
20 ـ أحدب نوتردام
21 ـ اللورد الصغير
22 ـ الشيطان الصغير
23 ـ أحزان صوفي
24 ـ فتيات مثاليات

تصميم الغلاف : هيثم فرحات

